كيف يحارب الجندى بلا خوذة؟

قصص

سمير الفيل

المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

قصص

كيف يحارب الجندى بلا خوذة ؟

سمير الفيل



٢٠٠١

إهداء

إلى الشهداء الذين رأيتهم

قابضين على دباشك بنادقهم

فى الحفر البرميلية بعد مرور

سنوات طويلة من الحرب

سمير الفيل



قرنفلة للرحيل .. وخوذة

قلت : أسميتك أمنية . هزت رأسها ، وأسبلت جفنيها للحظة ، لاحقتنى ابتسامتها : لماذا ؟

قلت : لابد أن نعيد ترتيب كل شىء . من جديد سنبدأ . وسيكون الكون حلواً . استدارت ، واجهتنى : « لاتذهب » مر سرب من طيور النورس .

كان الصباح مشرقًا ، وشقشقات العصافير تأتى واهنة ، لكنها لحوحة . وددت أن آخذ يديها بين يدى . كنا وحدنا ، والكلمات يخفق لها القلب .

فى المدرج ضغطت على يداها الرخصة . وسط الزحام كنا . أطرقت برأسها ، وسحبت يدها مرتبكة .

كانت القصيدة لها . لها وحدها . حين ألقيتها للجموع الصاخبة شعرت أننى أخترق الأزمنة والأمكنة ، وأقف أمام سريرها ، لأشهق بالشىء الذى أخفته الحروف . قالت بعينيها الوديعتين : « لاتذهب معهم » كنت أريد أن أذهب . أتركها وأعيد ترتيب أوراقى . بابتسامتها الأخاذة ودعتنى وأسنانها المفلوجة كانت آخر ما رأيت . هبطت السلم قفزاً . كان التلاميذ يلعبون فى الحديقة بمكعباتهم الملونة . عندما رأونى ضحكوا فقد كنت أعدو هذه المرة . الجرس النحاسى يدق ، والصفوف تنتظم .

قلت لأمى إننى أسعل بانتظام ، وصدرى يضيق ، وأننى أشعر باختناق يتزايد عندما الليل يأتى . . قامت تعد لى كوب اليانسون . قالت أنت ترهق نفسك كثيراً . نم أسبوعًا . واسترح .

فى طابور الاصطفاف الصباحى كنا ننتظر تلك الكلمة : « استرح !! » ما إن ينطقها الأومباشى فتحى حتى نخرج مناديلنا الكاكية ، ونمسح عرق الوجه ، ونحرك الجذع الذى تيبس .

قلت للقائد قبل أن أحصل على تصريح أجازتى الميدانية أن مدفع الهاون يحتاج إلى صيانة . هز رأسه بغير اقتناع . رد بأن الذخيرة نفسها قد عطبت فى صناديقها ، وأن الشحم الذى وضعناه منذ الشتاء قبل الماضى قد أساله حر الصحراء اللافح ، وأن الأمر برمته لم يعد يجدى .

كان يشير بكآبة تجاه الشرق ممتعضاً ، وبرج المراقبة خال من حراسه ، والعساكر خلعوا خوذاتهم وعلقوها على جدران الملاجىء الحديدية المقوسة .
قلت : إننى ذاهب . هل تحتاج إلى كتب من القاهرة ؟ هز رأسه : مللت الكلمات . لاتحضر شيئاً البته .

قالت أمنية : أرجوك ، لاتذهب معهم .

اغتصبت ضحكة : هل تخافين على ؟

هزت رأسها بغضب « طبعاً » ! كانت الشموس تشرق من عينيها ، وكنت لا أخاف أن تغرب . كنت فرحاً لأنها تخاف أن أذهب ولا أعود.

قالت أمى : « لماذا لم تعد تزورنا ؟ هل شغلك شىء عنا ؟ أنت دائم للسفر ، وقد أرهق صدرك ذلك الهواء البارد الذى تعبه .

لم أكن أدخن ، وكنت أسعل فيرتج جسدى كله . أمسكتنى بيديها : « لاتستجب للسعال . املك نفسك » .

لما أرسلتنى أمى بالملابس التى خاطتها للجيران فى المنزل ، الذى يقف

شامخاً على ناصية الشارع ، قابلتني سوسن أمام باب شقتهم . قالت لى : « لماذا تمشى حافياً ؟ لماذا ترتدى « البيجامة » دائما ؟ هل تحب قمر الدين ؟

قالت لى : « اتبعنى » أخذتنى من يدى ، فتحت الباب ، وجذبتنى إلى حجرة النوم كانت الملاءة البيضاء المشغولة بورد أحمر كبير مدلاة ، حبوت خلفها رفعت سبابتها ولاصقت فمها : « هس ! »

راحت تقطع بيديها المدربتين قطعة من لفافة قمر الدين : « هس !» أمضغ فى تلذذ، تمضغ وتكتم ضحكاتها . قالت : إن تلك اللفافة لاتفرغ أبداً.

نادتها أمها : سوسن . أخرجت رأسها الصغير ، صاحت : « حاضر لايوجد معى أحد » سمعت وقع الأقدام : جذبتنى من ملابسى : من الذى أدخلك هنا ؟ « بكت سوسن ، قالت : أنا . . كنا نلعب !» أخفيت قطعة قمر الدين خلف ظهرى صفعتها الأم . شتمتها . قالت لها كلاما موجعا خرجت من المكان مختنقا ، أردت أن أبكى لم تكن هناك دموع .

قالت لأمنية وقلبى يبكى : « أتيت بعد موعدك بعشر سنوات »!

تأملت قصيدتى « أعرف خطك جميل ، وحظك . . » ارتج عليها القول ، أردفت : « حاول أن تقتنع بكلامى . لاتذهب معهم !»

كان الأولاد فى مقاعدهم يحدثون جلبة . قلت لها » ستتحدث فى الأمر ! » عدت إلى منزلى دون أن أراها ، كانت قد انصرفت ، ودعتنى من بعيد . فى الصباح قابلتها متجهماً ، كنت أحاول ضبط انفعالاتى . قلت : « صباح الخير ! » ردت : « صباح النور ! » كل كلمة لها حساب دقيق : مر اليوم دون أن أنظر إلى عينيها البنيتين . شعرت بافتقاد أنفها

الدقيق ، وهلالان سوداوان يعلوان العينين . كانت ائتلاف الضياء يرحل .

فى المساء جلسنا فى المقهى . لاحظت أن معظمنا يضع على وجهه نظارة طبية . ضحكت بصوت مبحوح ، ونبرات صديقى المتحمس تعلو فى انفعال .

والجو محموم من حولى ، تصفيق متقطع ، وكوب الشاى بين يدى ، أحركه لعل الدفء يأتى . كنت أنقب فى الوجوه المكدودة عن أثر لذلك الشىء النبيل ، الذى فديناه بالدم منذ أربعة عشر عاما دون جدوى !

صاح كهل فى ركن بالمقهى : « كفوا عن الكلام . نريد أرزاً » تحسست بأصبعى الورقة المطوية فى جيب السترة ، أعدت إحكام الكوفية حول رقبتى ، قالت لى زوجتى فى الصباح لماذا تترك صدرك معرضاً للهواء ضع صديرياً صوفيا يقيك البرد : قبل أن أرد . قالت : «ماذا نأكل اليوم » ؟ »

كانت طلقتى المصوبة تجاه الهدف دقيقة ، انفجرت القذيفة ، وسمعت من على بعد صوت الارتطام الهائل . الرائد يسرى ربت على كتفى : « بطل ! » قالت سوسن وبعينيها أثر دموع قديمة : لماذا لم تعد تأتى ؟ جاءت إلى حوش منزلنا ، ومعها صندوق العرائس ، وعقد الخرز الملون ، وأصابع الطباشير ، كان وجهها بشوشا ، وسنتها المكسورة تميزها عن كل البنات جلست على مربعات البلاط . قالت . لماذا لا تلعب معى ؟ هل أنت حزين ؟ » .

لما رأتنى أمى لا أكاد ألتقط أنفاسى إلا بصعوبة أصابها الفزع . قالت : « أنت لا تأكل جيداً . . تحرم نفسك من أجل أولادك . لن ينفعك

أحد » عـدت إلى حقـيبتـى القديمة فى ركن منزو ، أعـدت قراءة الأوراق المهترئة عـثرت على صورة أبى فى إطارها الأسود . وكانت قـد فقدت من زمن : كنت أشبـهه . لكنه كان مـتأنقاً فى هـندامه بصورة لافـتة للنظر ، طربوشه مـائل فى زهو وجهه مـتصلب ، وحذاؤه مـصقول ، ابتـسمت ، أخرجت صـورة أمنية ، وتأملـت العينين الوديعـتين ، وثوبها الأخـضر ، وطيبة بلا حدود تشع من الملامح الهادئة .

وضـعت يدى فى جيب السـترة ، كـانت الورقـة قد تمزقت ومكبـر الصوت يـكمل صراخـه ، وحلقات الدخـان تنعقـد فى الجو . وهتـافات منغومـة تلعن الفقـر ، وتطلب الحرية والخـبز ، وكنت أرتعـد من البرد ، وصدرى مكتوم ، خرجت ألتمس بعض الهواء النظيف .

فى الخارج واجـهنى ثلاثتهم ، عـرفتهم من نظراتهـم الثاقبـة ، كانوا يرتدون معاطـفهم الرمادية الحائلة ويبـتسمون للملصقـات على الجدران بلا معنى . قال أحـدهم : « أمعك ولاعة ؟ » . خمنت أنه يقـصدنى ، قلت فى نفسى : « لن أرد» . عدت إلى مقعـدى ، وجدت طفلاً حافيا يجلس عليه ، وبيـده المنشور الانتـخابى وقـد راح يصنع منه طائرة بذيل طويل ، ضحكت : لم لا تعمل منه مسدساً ؟ هز شفتيه بلا فهم .

قـدمنى صديقى الوسـيم ، أمسـكت الميكروفون ، وضـعت يدى فى جيبى ، أخرج الورقة . حاصرنى التصفيق من كل جانب ، وكان يأتى إلى باهتا .

حاصرنى القلق عندما تأخر الأومباشى فتحى فى مهمته الليلية ، قلت للرائد يسرى : إن تلك العملية الصعبة ، ما كان ينبغى أن ندفع فيها جنديا بمفـرده . أشار لى بيـده أن أنصت . كان لحظتـها عـائدا فى ظلام الليل ،

ومعـه جهاز اللاسلـكى . ويده تنزف دما . جرح قطعى . أوقـفنا النزيف بعد سـاعة واحـدة كنا نوارى جـسده التراب فى باطن التبة الشـرقية ، عند النقطة ١٤١ بأبى وقفة . نـقرأ الفاتحة فى خشـوع على ضوء بطارية الهاون ٨٢ مم . وخلفنا التـبـاب الحاكـمـة ، وقد غـيـبت بيوت الإسـمـاعيليـة ومسطحات الماء ، غيبت كل شىء . انحنيت على قبره ، وتحسست الخوذة المقلوبة . ورسمت بإصبعى على الرمال قرنفلة !

قلت لأمنيـة وكنت أرتجف انفـعالا : إننى بـرغم كل شىء ، أشعـر برائحـة أشجـار الكافور ، والزيتـون ، وأن هذا الحب قـد ابتدأ بالصـمت وانتهى بإشارة خرساء . . وأن الأحلام محدودة . هذا حب لا أمل فيه . . وأن الوطن قد أخـذوه بعيـدا . . وأننى أصلى كى تفيض الأنهـار . « كاد يغلبنى البكاء ، انسحبت بعيدا . عدت إلى حجرة الدراسة ، انكفأت على منضدة التحضير ، كان التلاميذ يسمعون درس المحفوظات :

« فيك أشجار بهية . . فيك أزهار ذكية . .

« فيك أثمار شهية . . فيك خيرات هنية »

هزنى الأستاذ على : ماذا بك ؟ أما زال صدرك يؤلمك ؟ « قلت دون أن أرفع وجـهى : نـعم » ! الأولاد يصـرخـون : « يا بـلادى أنت عندى أجمل البلدان ! » .

قال بصوته ء الطيب الأجش : « أتشعر بتعب شديد ؟ »

لم أكن أستطيع أن أرد ، أرسل طفلاً يحضر كوب ماء ، وعصاه تشير إلى السبورة السوداء . شربت . ومـسحت عرقى . كانت رأسى ثقيلة . . جرس الحصـة الثالثة ضرب. أغلقت عينى أسندت رأسى للمنضـدة شعرت

بهــا دون أن أرفع وجهــى . قالت : « إننى .. ذاهــبة .. ». فى الفــوج الأول للأسرى عاد جابر يعرج ، حين رآنى صاح بى : « عمر الشقى بقى ! » .

لم أرفـع وجـهى عن عـرجه . احتضـنته : « كـيف حالك يا جابر ؟ » حين عــدت معه إلى مــنزله بغيط العنب . أجلسنى مــع أسرته فى الحــجرة الضيقة التى تطل على الإسطبل .. كان الحـصان يصهل ، فيمد الأب يده ببعــض العلــف ، ويــعاود سؤالى : ألن يحــصل جابر علــى مكافأة أو وسام ؟ « كانت البنـات الصغـيرات يعصبن رؤوسهن بمنــاديلهن الزاهية ، ويشاركننى تناول الطعام : قطع البصل الصغيرة فى طبق الملوخية .

قال جــابر لأبيه « : صديقى هذا لا يعيش إلا ليــحب !! » لأول مرة تنفرج أســارير الأب . قال : « ونحن نعيش لنأكل بالدين يا صــاحبى » . قال جابر : « أنه شاعر . توقعت ما طلبه : « أسمعنا شيئاً » !

قلت : « إننى مــرهق . وأن الحرب أنســتنى كل مــا كـتـبت . وإننى سعــيد لأن جابر قد عــاد . وإن الصليب الأحمر يــطلب منه أن يسود تلك الاستمارة . وسأقوم بهذا . »

قالــت بنـت تشبــه سوســن : « ألا تنزل مــعنا محطة الرمــل ؟ » قال جابر : « لابد أن تتفرج على الاسكندرية . سنزور الشاطبى ! »

قلت لأمى إن الشــعيـرات البيــضاء قــد تسللت إلى قلبى هذه المرة ، وأننى وحيد . أشــعر فى الليل بالرغبة فى البكاء . قلــت لها إننى أفزع فى الليل على أيد تتــشبث بى . أيدى الرفاق الذين ســقطوا فى النقطة ١٤١ . يستغيثون ويــبكون الزوجة والأطفال . وأن فى قلبى وجعا . قلت لأمى إن أمنية التى لم تــرها أوصتنى بزيارتك دائما . وأنهم يأتــون فى الليل يدقون

بقبضاتهم الواهنة أعمدة السرير ، فتأخذنى فى صدرها وتمسح عنى كل ضيق . وأننى أخشى أن أموت صغيراً كأبى . اخضلت عيناها : « ضع المصحف تحت رأسك !»

كانت البنادق بخزنها الحديدية مصوبة تجاه الخندق الأمامى ، وبعض شجيرات جدباء متناثرة وأمامها حقول الألغام ، حين اندفعت مفارز الاستطلاع وانفجر اللغم الأول ، أطار ساقا وذراعا ، وتدحرج جسدان : قال لى الطبيب أنت معرض للإصابة بالتهاب رئوى حاد . لاتسهر . لا تكتب . لا تنفعل !

قالت أمنية : « لا تذهب . ستنقل إلى الصعيد أو تفقد عملك!»

قلت : « هذا تذكار حتى لا تنسينى . أطرقت : « لن أنساك » كان قلبى يدق بعنف ، ووجهها الأخاذ يحتوينى ، وبحيرتان من عسل لم أجرؤ على النظر فيهما ، قالت : « اشرب شيئا ساخنا قبل أن تنام! »

قالت :« لن تغير العالم بقصائدك . »

قالت : « لقد صرت حزينة منذ التقينا . »

قالت : « علمتنى أشياء لم أكن أفكر فيها من قبل » كنا وحدنا. قدمت لى قطع « كرملة » ولم تقل لى إنها تحبنى . لكن عينها قالتا ذلك ، وصارت ترسم بقلمها خطوطا متقاطعة والحاجز بيننا لا ينكسر .

التفت إلى « المفتش » وأشار إلى الخريطة الزاهية الملونة ، قال :« التزم بتعليمات الوزارة هى دولة مستقلة ذات سيادة . لسنا فى حاجة إلى اعترافك بها » .

أريته جرحى ، طوى دفتره ، قال بصوت خافت : « اهتم بأكل العيش»! كتبت : « السيد مدير عام التربية والتعليم . . لما كانت حكومة الثورة المباركة قد علمتنا بالمجان ، وغرست فينا حب العروبة وكراهية الاستعمار ومقاومة العنصرية ، فإننى . . . »

استدعانى بعد أسبوع ، قال لى ثائراً : « اذهب إلى مجلس الأمن ، واعرض شكواك . أنا هنا أبحث عن درجة ساقطة ، علاوة مستحقة ، عملى إدارى بحت . لا شأن لى بالخرائط . لا تتعبنى معك » .

أمى أعادت جس رأسى . قالت « : لا تخف . . أنت الذى توهم نفسك بأشياء . لا تصدق الطبيب ، يريد أن يعمل من الحبة قبة . سأصعد السطح ، وأذبح لك دجاجة . أتذكر يوم شاهدناك فى التلفزيون . لقد فرحت بك تباهيت أمام الجيران . لا تقل أنك ستموت » . جابر خطف ضلع الهايك يا ملازم يحيى وفصل منه ستره ، وأنا متظلم ، للأمام سر . انبطح . قم . للأمام سر . انبطح . قم . حبس ٤٥ يوما .

قال رجل طيب هامساً : « أخاف أن يحبسوكم . . خففوا بعض الشىء » صاح واحد من الخارج : « أصابنا الصداع لا فائدة من صياحكم . . بلدنا لن تتغير » كان المقهى فقيراً . وصورة اللاعب الفذ مرسومة بالحجم الطبيعى وبألوان زاهية على الحائط خلف المرشحين .

كان صوتى مبحوحاً ، لكنه عالى النبرة ، ارتفعت أيد كثيرة تلوح لى . فى المساء عالى بقرطاس الطعمية الساخنة . كانوا نائمين . جلست أمام التلفزيون أشاهد الرجل الأبيض يصوب غدارته بأحكام فى صدر الهنود الحمر . كان بعضهم يشبه المرشحين ، بل أن زعيمهم له وجه صاحب المقهى رث الثياب .

قلت لأمنية : نحن مسافرون إلى مصيرنا المحتوم .

الالتفـاف المفاجىء لدبابات السنتريون الضـخمة فى عمق دفـاعاتّنا ، وصرخة جـابر الملتاعة : « حاسب » أغـطس فى خندقى ،والمدفـع يلتصق بى ، والحفرة تبلعنى وزمزمية الماء بلا نقطة واحدة .

قالت أم سوسن بغضب : « هذا الولد أفسد ابنتى » . وكنت أسمعها بصوتها الرقيق تدعونى لألعب معها ، فأمتنع . وتبكى أمام الباب المغلق . تطرق السقاطة مرات ، تنصرف حزينة وأرقبها من خلف الشيش .

قال المحقق : « أنت لم تلتزم بالمقرر الدرسى ، وتوجيهات الوزارة فى هذا الشأن . ستكتب اعتذارا ونحفظ التحقيق حرصا على مستقبلك » حين عدت إلى المدرسة ، أسندت جبهتى إلى عامود الخرسانة تحت المظلة . كان التـلاميذ قـد أخـذوا فى الانصـراف . . وحدى أجـلس مفكرا فى رفـاق الهاون ، والتدريبات الليليـة فى أبى عطوة وفايد . وطوابير الاصطفاف فى الدفرسوار ، والتوجه لخط الدفاع الأول بالتبة ٧٥ .

حمامات تهبط فى الفناء الخالى ، تسـير فى حذر . ومطر خفيف يغسل وجهى . قال زميلى على : « أتنتظر أحد » ؟ نامت رأسى على ذراعها بكيت .

قلت لهـا إننى تعـس . وإن هذا العـالم يبـدو لى بلا مـعنى . وإن الصدفة التى جمعتنا ستفرقنا ذات يوم .

قلت : إننى أريد أن أقبلك قبل أن أرحل .

قلت : عيناك متاهة .و الحاجز الزجاجى قاس وعنيد

قلت : أحبيتك .

قالت : لعلها مرحلة ، تجتازها بسلام !

قلت : أهوى أن أرى الشمس تشرق . وأخاف لى أن أناملها غاربة.

لم تكن تسمعنى أمنية . كانت قد رحلت ، وكنت وحدى .

أخذت الأزهار من أحواضها ، وأهمس لقرنفلة غائبة ، وأتذكر خوذة فوق عصا .. هناك على البعد !

أحزان
الولد شندى

عندما كان شندى يأتى إلى حوشنا ليلعب معى يرى أكوام السمك تصنفها أمى وزوجات أعمامى فى سلات خوصية كبيرة ، فيقف إلى جوارهن ، وتعمل يده فى الأكوام بخفة : هذا بلطى ، وذاك مرجان . تلتصق القشور الفضية بأصابعه الدقيقة أرفض اللعب معه قبل أن يغسل يديه فى مياه البحيرة ، أنظر إليه يعدو نحو أعواد البوص ، يغمس يديه فى المياه الراكدة ، يرفع يده إلى أعلى ، ثم يغطس برأسه فى البحيرة ، تضطرب أسراب الأوز ، تسبح مبتعدة إلى الداخل .. أرى من الطاقة المستديرة نبات « الزقيم » وقد تفتحت زهوره البنفسجية . أطلب منه أن يأتى ببعض الزهور فيعلقها أعلى الصارى ، يأتى مسرعا ، رأسه مبلله تصرخ فيه أمى : « لماذا أقتلعت الزقيم » وتحته ترقد « الزريعة » يزم شفتيه ، ويبدأ فى تسلق الصارى الذى يستند على حائط الجامع ، أصعد من ورائه ، تصرخ أمى بصوت يرعشه الخوف : « انزلا .. سأحكى لأبيك أيها الشقى .. أما أنت فستعرف أمك ماذا تفعل فى غيبتها » . يعرف أن أمه ذهبت إلى البندر تبيع نصيب يومها ولن تعود قبل أن يصعد عم خضير إلى المئذنة ، يمد رقبته ، ويصيح بصوته الخشن : الله أكبر .. الله أكبر .. وقتها تكون الشمس قد لمت خيوطها وأذنت بالرحيل ، تغطس فى البحيرة منتشية بالدفء والوهج . لن ينزل قبل أن يثبت باقته أعلى الصارى ويشير بأصبعه إلى الصوارى المنتشرة على امتداد البحيرة .. ننزل .. فتتلقفنا أمى ، تجذبنى من شعرى ،

تلطمنى على وجهى ثم تضرب شندى على ظهره ، ضربات لاتؤلمه .. سرعان مايبكى ، فتسرع إلى الدار ، تتشنج أصابعه ، وتصنع قبضة محكمة ، تقبله ثم تربت على كتفيه ، وتضع « الصاغ » فى جيبه .

اسأل أمى فى المساء : لماذا تقبليه ولا تفعلى معى الشىء نفسه ؟ تأخذ شهيقا عميقا تزفر بحرارة: شندى يتيم .. فقد أباه وأمه .

فى الليل يعود الرجال من البحيرة بزوارقهم التى تأتى مسرعة ، المدارى تنغرس فى القاع حيث الطمى اللزج . تخرج النسوة يحملن مصابيحهن يلوحن للرجال عراة الصدور . يحملن الشباك المبللة بالماء ، ينشرنها على جدران الأبنية الواطئة ، وعلى طول الساحة الممتدة ، نرى الرزق وفيرا فى ضحكات الرجال ونكاتهم قبل أن تصل الزوارق إلى البلدة ، وتلقى بمراسيها ، يأتى شندى يجذبنى من نومى : هيا .. نلحق « الزفر » ! ابحث عن جرابى التيلى ، أحمله فى يدى ، نتلقف السمكات التى تسقط على الشاطىء أثناء نقل السلال . نخوض معاركنا الصغيرة بأقدام حافية وأنظار ثاقبة .. بين الحين والحين نتحسس ما أصبناه من رزق وعندما يقترب أبى ، أقذف بجرابى لشندى وأتعلق فى أقدامه ، يرفعنى ليغسل وجهى نور القمر ، يقبلنى وأمى لا تفعل . أتحسس ذقنه النابتة ، شعيرات بارزة تتناثر فى فوضى حول صدغيه ينظر شندى نحوى ويطرق فى صمت ، أعرف لماذا هو حزين ، أمى حدثتنى ، وهى لذلك تعطيه « صاغا » وتقبله ، لكن الحزن لا يذهب ، أمى تحكى لى : يوم جاء الخبر ، شقت الزوجة ثوبها ، تعرى صدرها أمام الناس ، لطمت خديها وصبغت وجنيتها بالنيلة ، عفرت وجهها بتراب الساحة. بكت بصوت عال .. كنت رضيعا تحبو ،خفت أن أرضعك بشديى لأننى حزنت على

صديق وما أصاب زوجته من بعده . ذهب إليها الشيخ خضير . حاول أن يواسيها بكلماته الحانية ، ازداد نواحها ، تركته يتلو سور القرآن وخرجت إلى الحوش ، نزعت الشباك التى تركها بعده ، مزقتها : « لن يخرج بشباكه غيره » . جاءت على المدارة الغليظة وكسرتها . ثم جلست على حافة سريرها النحاسى ، وبكت .. بكت والطفل فى أحشائها يئن من الحزن . ظنت أمى أن الطفل سيموت كمدا ، توقعت أن يجهضها الحزن . لكنها فى ظلام الليل والرجال فى البحيرة والمطر يسقط مدرارا ، أتت صرختها تشق سكون الليل ، أسرعن إليها ، كانت تمسك بحديد السرير وتزوم ، الفجر غبش وضباب ونورس يحوم فى الفضاء تزوم .. آه .. أم ...آه .. أم .. تنقبض أصابعها ، تتقلص ، تنقبض .. شدى حيلك .. آه .. أم .. آه .. أم .. الطلق يتوالى ، تنقبض أصابعها أكثر ، تترك حديد السرير ، تمسك بملاءة الفراش تنكمش فى يدها تعض على الوسادة ، تتشكل قسماتها ألما ممضا ، تنبسط يدها ولد .. ولد .. تغمض عينيها تروح فى سبات عميق .

لم تزغرد النسوة كالعادة ، خفن أن يقال أنهن لايعملن للموت حرمة . استقبلن شندى بوجوه متجهمة ، صلبة ، تقطر حزنا ، ازداد الحزن .. تحدثنى أمى .. القمر يغسل وجوه العائدين إلى بيوتهم .. تحدثنى .. عدنا فى صمت إلى بيوتنا ، وشندى يرفس بقدميه الهواء ويبكى بكاء مرا بينما المطر قد توقف عن الهطول والديكة فوق الأسطح كفوا عن الصياح والصباح خجولا أتى .. والصوارى على البعد ظهرت .

ينزلنى أبى على عتبة الدار ، يطرق الباب فى خفوت ، تسرع أمى بخطواتها : حمدا لله على سلامتك تغلق الباب من خلفنا ، تسرع لتعد له

الماء الساخن ، تدلك قدميه : تعبت الليلة . يهز أبى رأسه فى رضى ، يشعل سيجارته من علبته الحديدية الصدئة ، ينفث دخانه الأبيض فى فضاء الغرفة .

أطل من الطاقة . أبصره يعود وحيدا يحمل فى يده جرابى وجرابه ، فى الضوء الفضى يطوح مابيده فى الهواء . ينظر بحسرة إلى البيوت التى بدأت تغلق أبوابها خلف الرجال ، يعود لتنهره أمه تغلق الباب وراءه بلا رجل . ينام شندى يحلم بالقروش ! أطلقت الأعيرة النارية فى الهواء ، سارت أختى يوم زفافها تسبقها الزغاريد ، ودقات الدفوف متلاحقة ، ينداح

« البحر شافها راح خطبها

ودق موجه يم بابها »

تسير عفاف فى خجل ، تنثر النسوة حبات الملح وحفنات فوق الموكب ، أضواء الكلوبات يختلط بوشيشها ، أراها خلف النور تسير بثوبها الأسود ، وعينيها غير المكحلتين ، لاتصفق مثلما تفعل خديجة التى استوقفت العروس وحزمت نفسها وراحت ترقص ، جسدها يهتز فى إيقاع محموم ، تسرى البهجة فى الحشد وهى تدبدب بقدميها الصغيرتين ، وتطوح رأسها فى كل اتجاه . ركبت أختى الهودج المزدان بالورود وسعف النخل الأخضر وسار الموكب نحو الدار المطلة بنوافذها على البحيرة ، صعدت مع عريسها إلى غرفتها . كانت البلدة ترقص وتغنى ، بينما شندى يجذبنى من يدى ، يقرص صديق له ثم يختفى فى الزحام ، يضحك ويهرب بين أقدام الرجال حتى لاتراه أمه ، تخاف عليه أن يفسده الفرح وهو ماعرف سوى الحزن .

يفتح الباب ،وتمتد يد « بالعرض »تأخذ أمى المنديل ببقع الدم فى شاش القماش الأبيض تفرده فوق رأسها ، تغنى البنات من جديد . .

« قولوا لأبوها أن كان جعان يتعشى

وإن كان تعب يخرج قوام يتمشى »

تدوى الأعـيرة النارية مـتـلاحقـة ، تبكى أم شندى . يلمح النسـوة دموعها تنسال على وجنتيها يخففن عنها . يخجل شندى أن يرى أمه تبكى ، ينفلت من الزحام الذى يحـبه ، يجرى حيث الدار ، يغلق البـاب خلفه ، أطرقه لحـوحًا ، لايفـتح ، أقفز من الـطاقة ، بعد أن أحـشر جـسدى فى استدارتها أربت عليه ، يبكى هو الآخر ، لماذا تبكى ياشندى ؟ لا يرد على سؤالى . أعود لأمى الفـرحة . أكرر السؤال ، تختـفى ابتسامتها سـتعرف عندما تكبر .

لكننى لست صغيرا يا أمى ، أنا الآن أسرح مع الرجال فى البحيرة ، أعرف كـيف أفرد الشبـاك وأمسك بالمدراة ، أغرسـها فى الطين ، ليـتسلل خشب الزورق من تحت قـدمى . أنزعها فى قـوة وجسارة وأغرسـها . لم أعد صغيرا . أعرف البحيـرة شبرا شبرا مكامن وجزر وزريعات . . تحدثنى أمى : مات صديق وهو فى عـز شبابه . ابتلعته الحـرب . لم يكن قد مر على زواجه سبعة أشهر حتى جـاءته ورقة الاستدعاء . خلع لباس الصيد ، وارتدى أفروله الكاكى ، وذهب إلى الميدان ، من يومها لم يرجع .

عندما أذهب إلى مقابر البلدة أحمل عن أمى الخوص الأخضر وفطائر « الحسنة » يأتى شندى معنا ، يقول لأمى : لا أعرف قبر أبى . تسمر أمى نظرتها فى الشـواهد الخشبية ، والأضـرحة التى تعلوها الأهلة ولا تنبس . نقرأ الفاتحـة ثم نقبل أيدينا وجها لظهـر ، يأتى الشيخ خضيـر ، يهز ظهره قبل أن يتلو السور الكريمة .

نتجـول بين المقـابر ، ويحدثنى شندى عن أحـزانه : ذهب أبى ولم يعـد ، حـتى قبـره لا أعـرف أين هو ! تقـول أمى أنه مع النبى فى رياض الجنة ، لكننى كنت أريده هنا معنا . أنتظر قدومه ساعة الفجر ، أتعلق فى عنقـه ، يحـملنى أو يزجـرنى ، لكـنى أراه . . أمى تحكى أنه كـان طيب القلب لماذا ذهب ولماذا لم يرجع ؟ استمع لشندى وآخـذه من يده ، ونبتعد عن المقابر ، أعـرف أنها تثير شجنـه وتزيد أحزانه ، تقترب من البـحيرة ، نخلع ثيابنا نعلقها عـلى أعواد البوص ، نقفز فى المياه الحبيـبة تغمر جلودنا السمراء . أسبح بجواره ، والشواهد تتصاغر مبتعدة !

عاقبنى أبى لأننى ضربت توفيق ابن العمـة « محرمة » ، ضربته حتى سـال الدم من أنفـه ، وصـار بقـعا حـمـراء تلطخ قـميـصه . أتى بحـبل مجدول ، وظل يضـربنى غير آبه لصرخاتى وألمـى إلى أن أتت العمة على صوتى ، وطلبت منه أن يسـامحنى على أن لا أعود لضـرب ابنها . تركنى أبى، نظرت إليها فى تحد . هى التى جـاءت تشكو وهى الآن تطلب العفو عنى . أمى لاتفعل هذا . عـندما أصاب بجرح ، تـضربنى ولا تطلب من الجارات أن يضربن أطفالهن .

عرف أبى أننى ضربت توفيق لأنه شـتم شندى وعايره بثوبه الممزق ، وأقدامه الحـافية . رغم ضرباته القاسـية فلازلت أحبـه ، قدم لى كوبا من الشـاى تناولتـه من يده ، ثم تركتـه يبـرد ، ثم أشـربه أخاف أن يغـضب فيضربنى ثانية .

سمعت جلبة فى الخارج ، نظرت مـن الطاقة ، كان الأولاد يتحلقون بقرة مزينة بطوق من الورود ، يلتف حـول رقبتها المتهـدلة ، يقودها أحمد ابن جزار البلد ، يهتف بصوته القبـيح : « الكيلو بكام ؟ » فيرد الأطفال فى

حماسة يبحون حناجرهم : « بجنيه ونص » يرقص أحمد أمام البقرة التى يسحبها ، يلفه الغبار وعيون النوّر يرمقنه فى استطلاع : « وعند مين ؟ » . يعود للأطفال نشوتهم « أحسن جزار » .

ولأنه جزار القرية الوحيد ، فقد فرحت لأن أبى سيشترى لنا لحما يوم الجمعة ، حيث يأخذنى معه المسجد ، لأصلى بجواره ، نعود إلى المنزل ، فتأتى أمى بالأطباق مملوءة بالحساء ، وقطع اللحم . أنتظر أبى حتى يبسمل ويمد يده . فتبدأ أمى فى أعطاء نصيبى من اللحم . لاتنسى أن ترسلنى إلى شندى ليأكل معنا ، تمنعه أمه ، فتقسم أمى أن تكون قطيعة أن لم يأت .

ينام أبى ، فنجلس مع أمى تحدثنا عن عم خضير الذى تقسم أن الناس رأوه يمشى على سطح الماء وأن له كرامات وحجابه يرد عين الحسود أقول لأمى أن الذباب يقف على وجهه فلا يطرده بيده فكيف يكون صاحب كرامات ؟ تتوعدنى أمى : كيف تتحدث عن الشيخ خضير هكذا . . أفسدتكم المدارس !

وعندما نخرج إلى الساحة نلعب مع الأطفال . يطلبون أن تكون اللعبة « حرب المراكب » فيرفض شندى أن يلعب ، يلعن الحرب أمامهم . . ذهب أبى ولم أره . أتعرفون الحرب يا أصحاب . أمى حدثتنى عنها . قنابل تنفجر ، ودماء تنبثق . وأشلاء تتطاير وجثث تتفحم ونساء تترمل وأطفال يفقدون الآباء . يرد عامر ابن العمدة : أنت تخاف ! يطلب من شندى أن ينازله يخلع كل منهما قميصه ، ينفضا أيديهما فى تراب الساحة ، وتبدأ الأجساد تنثنى وتتلوى ، كتلة تنفصل وتتداخل . أشجع شندى وهو يلوى معصم عامر ، يتأوه ثم يرتمى بجسده على أرض الساحة المبتلة ، نصفق ونحمل شندى على أعناقنا ، نحمله بثيابه الرثة وأقدامه

الحافية ،ونلعب لعبته . يقول لمن يعترضه : هل تنازلنى ؟ عندما نتعب نجلس بجوار الزوارق المقلوبة على الشاطئ كى يصلحها عم عريف نحكى عن الجنية أم الشعور الخضراء وديك الجزيرة الذى يبيض بيضته من الذهب ، ويحكى ابن درويش عن الحرب .

ذهب أبوه وعاد بلا ذراع ، عندما نراه سائرا فى القرية ونلمح كم سترته يتدلى متأرجحا . ألمح الدموع تملأ عينى شندى . لاشك أنه يتذكر أبيه ويتساءل : ترى ماذا كان يقدم لى لو عاد حيا ؟؟

مرضت أم شندى ، وماعادت تذهب إلى السوق . . حمل ولدها سلتها وذهب إلى سوق البندر يجرى على رزقه . يذهب والشمس تتمطى بدفء خجول يعود والغسق يضفى ظلا من القتامة على ماء البحيرة ووجوه الخلق وأسراب الأوز التى تصبح وردية فى انعكاس طروب للسماء الدامية .

عاد شندى فى يومه الرابع ثائرا : هؤلاء أناس لا أستطيع أن أتعامل معهم .

غير لغة البحر لا أفهم ، وغير الشباك لا أحمل . . خافت الأم عليه من البحيرة ، البرد ، والليل والنوة . قطب مابين حاجبيه وشرد بذهنه : ليتك تركت شباك أبى يا أمى . . كان لابد أن تعرفى أننى سأعشق البحيرة يوما . أعود إليها مثلما كان يفعل .

ترك شندى المدرسة ، خرج مع الرجال فى زوارقهم حاملا زوادته فى منديله الصغير ، ماعاد يأتى فى الليالى المقمرة ليلعب معنا عند مراكب عم عريف، يتحدث عن الجنيه ذات الشعور الخضراء وديك الجزيرة . ترك لى جرابه وصنارته . . لأنه أصبح صيادا يعرف البحر والبحر يعرفه . عندما

تعـود المراكب صائمـة بلا رزق . كان يأتـى الدار ، يصفـر صفـارته التى أعرفهـا ، أخرج إليه ، أعانقه ، تستنـد ظهورنا إلى الزوارق وندلى أقدامنا فى مياه البحيرة : كيف حالك ؟

يطوقنى بنظرته الودودة : الحـمد لله . أمى مازالت مريضـة . أخاف عليها . لقد تعبت كثيرا وفعلت أكثر مما يفعل الرجال . آن لها أن تستريح .

ضـربات منتظمة فى عـمق البـحيـرة . . طاش . . طاش . . المدراة ترتفع وتنخـفض ، القـمر غـائب والضوء بليـد . من العـائد والبلدة فى مرقدها . نحدق فى الظلام الكثيف . شبح يتحرك فى اللاضوء ، يبدو أنه رآنا : مساء الخير . نعرف من صوته درويش ، لقد تخلف عن الرجال لأنه يتحرك بقـاربه فى صعوبة ، يرفض مساعدة الرجـال ، ويقسم أنه مثلهم . مثلما كان دائما قبل أن تطيح الحرب بذراعه القوى .

أذهب مع شندى إلى منزل الأم . يقبلهـا فى حب بالغ : لماذا رجعتم سريعا ياولدى ؟ يطلق ضحكته الأسيرة : الخير وافر . . حمدا لله . .

أعرف أنه يكذب . تعتذر لأنها لاتستطيع أن تعد لنا أكواب الشاى . أذهب مع شندى ليعد شايا لـثلاثتنا . القمر مختنق فى الفضـاء البعيد . . من الطاقـة أراه . تدوى بعض الأعـيرة الـنارية أعرف أنه فـرح ابنة عـمى ريحان . . سـتبكى أم شـندى ، وتتذكر ، الرصـاصة التى سكـنت صدر زوجها ، لا أنسى يوم زفاف أختى ، دموعـها المنهمرة، ثوبها الأسود الذى ماخـلعتـه يوما . تخـتلط فى ذهنى الصور ، وتتـضارب الأفكـار ، أكوام السمك فى حوض الدار أختى تركب هودجـها ، الأعيرة النارية تومض فى الظلام ، درويش يجدف بذراع واحدة ، البقرة فى الساحة يزفها الأطفال ، أم شندى المريضة ، شهيد لانعرف قـبره ، طفل لم ير أبيه ، شواهد المقابر

الخشبية ، زوارق تعود بلا رزق ، دموع تنساب ، يدها تنقبض وتنبسط ولد . . ولد . .ضربات أبى على جسدى . . شندى ينازل ابن العمدة . .كرمات الشيخ خضير . . تكسر أمامه مدراة الغائب . . يهتز ظهره دونما سبب . . قريتى . . حزنك المتواصل لايرحل رغم الأعيرة التى تومض . . آه . . أم آه . . أم . . دقات الأطفال على الأوانى النحاسية . . « ياسيدنا يا عمر . . فك خنقة القمر » أمى ما زالت مريضة . . أخاف عليها . .

تسمرت عينى على صورة داخل إطار زجاجى ، محاطة بشريط أسود . . لرجل كث الشارب ، حلو التقاطيع ، كان يبتسم لى فى مودة ، لكن القمر غائب والليل يستبيح القرية . مد يده بكوب الشاى . رآنى أحدق فى الصورة . أبى . . لم أره إلا هنا . . كثيرا ما أحدثه عن متاعبى . . أنه يسمع لى . . ويخفف عنى .

فتحت نافذة الدار ، تدفقت نسمات باردة فى جو الغرفة ، استنشقت الهواء رطبا ، زفيرى الحار يلهب صدرى ، أنظر ثانية إلى الصورة على جدار الحجرة ، ينتقل بصرى إلى الظلام يعتلى البيوت والبحيرة والقمر يتملص من قيوده ، وضربات الأطفال تتعالى وأصواتهم تقترب . . الدقات . . الدقات . . أهتف معهم . . أهتف بصوت عال يملأ المكان : « ياسيدنا عمر . . فك خنقة القمر » .

وأبكى . . أبكى لاستريح . . .

العصا والخوذة

ألقيت نظرة مستطلعة إلى الفضاء المعتم خارج الملجأ .. تجولت عيناى فى الظلمة الكثيفة . بحثًا عن ضوء نجمة .. أرتد بصرى إلى حيث أجلس تحت القضبان الحديدية المقوسة التى تئن تحت ضغط ذرات الرمال التى راحت تتراكم حول المكان محدثة صوتًا غريبًا لم نألفه .. خيل الّى فى البداية أن المطر قد هطل غزيراً ، لأن صوت النقرات الخفيفة قد اشتد ، جذبت سترتى الصوفية ، وأرتديتها على عجل ، تأكدت أن القايش يحمل جفير السونكى ، حملت بندقيتى ، تأكدت أن القايش مشدود على وسطى ، صعدت الدرجات القليلة التى صنعناها من غرارات الرمل ، شعرت أنها ليست بالصلابة التى تعودتها .حاولت فى مشقة أن أنفذ من فتحة الملجأ التى ضاقت على غير العادة .

واجهت الفضاء ، واستبدت بى الدهشة ، كانت العاصفة الرملية قد هبت وراحت تقذف بملايين الذرات الرملية مغطية المدافع وملاجىء الأفراد وحفر الذخيرة ، دون أن يخبرنا فرد الخدمة الليلية . لولا ميعاد خفرتى « الكينجى » لما صحوت ، ولطمرتنا الرمال دون أن نشعر !

ناديت بأعلى صوتى على رفاق الطاقم ، لم تقلقهم صيحاتى . نزلت الدرجات التى كادت تختفى ، هززتهم فى عنف .. العاصفة . العاصفة .. وضعت بندقيتى الآلية فوق سريرى « الصاج » . انتزعتهم من أحلامهم الكابوسية التى يقصونها على فى الصباح . عبد الرحمن ، ومحمود ، وبشندى ، وفزاع . خرجوا « ببيجاماتهم » الكاكية ، يحملون الكواريك ، هرولنا تجاه حفرة الهاون المستديرة ، كان جسد المدفع قد اختفى ، ولم يعد

يبدو منه سوى نصف الماسورة وجهاز التصويب ، أشرت على عبد الرحمن أن يسرع به إلى الملجأ . ويعود بسرعة ، رحنا نحفر حول المدفع فى قوة .. تلك الضربات المميزة لفزاع راحت تصنع فجوة حول الجسم الحديدى . أتى على أصواتنا الرقيب درويش تشاجرت معه .. لماذا لم تنبهنا إلى العاصفة .. وأنت حكمدار الخدمة ؟

رد فى هدوء .. وهل يترك الجميع الحفرة ؟

صرخت فى وجهه .. هذا أفضل من أن تردمنا الرمال .

لم يرد على صيحاتى ، انشغل معنا فى اخراج المدفع من حفرته ووضعه فوق التبة الشرقية القريبة من خندق المشاة الأول .

طهرنا حفرة الذخيرة ، واستخرجنا خمسة صناديق شديدة الانفجار . كلفت بشندى أن يقوم بحراسة الموقع ، وأسرعنا نطهر الملجأ الذى اختفى تمامًا تحت أمواج الرمال ، ميزناه بعمود التنشين المدرج . أسرع فزاع بالكوريك يقذف كومات الرمال بعيدًا ، أخذ محمود يلهث من شدة الارهاق . وعندما بدت فتحة ضئيلة ، اكتشفنا أن ذبالة المصباح الكيروسينى قد أطفئت . حاولنا قدر المستطاع أن نتغلب على تلك الرمال التى تزحف فى نعومة إلى أرضية الملجأ .. عاد (نوار) من خدمته البرينجى وشاركنا العمل .

تذكرت ملجأ الضابط « وحيد » فكلفت فزاع وعبد الرحمن أن يسرعا ويحاولا ازاحة الرمال . فهو لن يصحو قبل التاسعة صباحًا وفى الوقت متسع .

مرت الدقائق بطيئة ، هدأت حدة العاصفة ، وضحت الرؤية بعض الشىء . توقفت الذرات عن الارتطام بأجسادنا ، كانت الخيوط الأولى للفجر

توشك أن تنسج ، عندما كـفت الرياح عن إرسال المزيد من الرمال المتـعبة التى ما تـكاد تبصر بأى كـائن حى أو جمـاد ، حتى تسـتقـر من حوله ، وكأنها جدار شرنقة . جمعت أفراد الطاقم ، أخذت تمامهم ، ولمحت رغم أن الضوء كان مجهدًا أن الرمال قد صبغتهم وحولتهم أشباحًا صفرًا ضحكنا فجـأة ، أخذت الضحـكة تتسع عندما عـرف فزاع أن مـحمود قـد أخفى أقراصا من (المشبك) الدمياطى فى حفـرة برميلية ، وضع عليها علامة ، يرجع إليها وقت الحاجة خوفا من هجوم بشندى .

سـوت العاصـفة أرض المكان فـأخذ الموقع هوية جـديدة . . صحـا الضابط وحيـد على ضحكاتنا ، أمرنا أن نكف عن الهزل. ونسـرع بصيانة المدفع فقد تقوم العاصفة ظهرا !

قاسية هى شـمس سيناء فى الظهيرة ، تلهب الوجوه بوهجهـا فتأخذ أنفاسك فى صعـوبة ، خاصة عندما تأتى الأوامر من قيـادة اللواء بالانتقال من موقع إلى مـوقع جديد . . مرت ثلاثة أيام على ترحيلنا إلـى قمة هذه التبة سألنا عن اسمها ، فعرفنا أن اسمها (أبو وقفة) صحراء شاسعة تمرح فيـها الفئـران البنية اللون التى تشاركنـا طعامنا دون استـئذان طاردناها فى البـداية ، ولما تمســكت فى عند بحـقهـا فى « الجـراية » قلنا لأنفـسنا . . لامانع . . فـالله يرزقنا وإياها . تعـودنا فى مواقع ومـعسكرات سـابقة أن نتآلف مع القطط والكلاب . فلم نصنع عداوة مع أبناء عمومتهم ؟

عصر يوم من الأيام جمعنا الضابط وحـيد لتوزيع الخدمة الليلية ، كنا قـد جـهزنا (براد) الـشاى ونسـتـعـد للشـراب ، لكنا تركناه وأسـرعنا بالاصطفاف علـى كثب منه . . تسلل فأر بحـذر شديد وراح يحـوم حول المكان . . اقترب من (البراد) وراح يتـشمم الشراب اللذيذ ، نلمح بطرف

أعيننا البخار المتصاعد ونخشى ما سوف يحدث ، ارتكز الفأر على ساقيه الأماميتين ، وراح يلعق الشاى ، ثم لسعته سخونته فراح يجرى هاربًا ويئن متألما . . وفزاع الذى كتم ضحكته ، انفجر ضاحكًا يضرب كفًا بكف . . والضابط وحيد لا يعرف السبب ، وهو من أنصار المقولة الشهيرة . . (ضحك بغير سبب . . قلة أدب) ، لذلك أعطاه خدمتين زيادة على خدماته الليلية . وعندما صرفنا الضابط كانت ضحكاتنا تلون الفضاء . . والفئران بين الأسلاك الشائكة تلهو .

مرت سنة كاملة على حرب أكتوبر وانتقلنا من مواقعنا بالدفرسوار حيث أشجار المانجو تحيط بالموقع من كل جانب وعيون من المياه الصافية تتدفق دون حساب هنا وهناك . إلى داخل سيناء .

هذه هى الأرض التى حاربنا فوق رمالها ، والدبابات المحطمة على مرمى البصر . . كلنا حاربنا وذقنا لوعة الفراق ، ومرارة الانكسار . . انصهرت فينا الأحاسيس النبيلة ونحن نواجه الموت كل لحظة .

هاهى العقارب تلهو بين أعواد الحشائش اليابسة ،بالقرب من المدق الجيرى النازل للطريق الأوسط ومن حولنا حقول الألغام ، تحدده مربعات الأسلاك الشائكة .

العيون مجهدة ، والأنفاس متعبة ، عندما نبصق نخرج من صدورنا رمالاً لزوجة ، أستنشقناها ليلة أمس ، نعيد تركيب الهاون فى حفرته وتنظيف الذخيرة ورصها من جديد .

أعرفكم على أفراد طاقمى . .

أصغرهم وأقربهم لقلبى عبد الرحمن من السجاعية وهى قرية صغيرة تتبع المحلة الكبرى ، فتى ريفى ، طيب القلب ، لم تحنكه التجارب بعد . الوحيد الذى دخل الخدمة بعد انتهاء الحرب فى طاقمنا ، لذلك فلن تأخذك الدهشة أن رأيته يضحك ، وينظر للعالم تلك النظرة الوردية التى لم تر الوجه القبيح من التجربة ، ولم تقرب عالم الموت والقنبلة . . يحتفظ بصورة خطيبته فى جيب سترته . عندما كان يعرض صورتها علينا خطفها فزاع وقبلها فى خبث ، فكانت مشاجرة مزقت فيها الملابس وبدت نذر حرب تظهر فى الأفق إلا أن خبرة فزاع ، جعلته يحتوى الموقف ويعطى عبد الرحمن صورة زوجته ليقبلها وتنتهى الأزمة .

بشندى وفزاع ، كلاهما من الصعيد ، وقد اشتركا سويا على نفس الطاقم خلال حرب أكتوبر . أصيب الأول بشظية فى كتفه ، استخرجوها له فى مستشفى القصاصين ، أنه أب لثلاثة أطفال ، يدخن سيجارتين كل دقيقة ، أما فزاع فإنه صاحب المواويل الطيبة ، يذكرك كلما استمعت إليه بالحنين للأرض ، وتكاد تطفر الدموع من عينيك إذا غنى للغربة والحبيبة أما نوار فهو صياد من بحيرة المنزلة ، يدعى أن له زورقا يمتلكه ، ويصطاد من فوقه ، يطرح الشباك فتخرج ممتلئة كل مرة ، ويقسم أنه يغوى جنية فى جزيرة الذهب ، يطارحها الهوى فجر كل يوم خلف أعواد البوص ، وأن السر لو تسرب لأهل قريته لطردوه شر طردة .

محمود ، المدرس الوحيد بيننا ، يقرأ كثيرا ، ويحدثنا ليل نهار عن فتاته التى يهواها ، ويكتب عشرات الخطابات فترد بكلمات لو سمعتها لقفز قلبك بين ضلوعك .

أراكم تتساءلون عـنى ! ناجح عبد المقصود . هذا أسـمى أعمل على ظهر إحـدى مراكب الصيـد ببورسعـيد . وأقطن بالقبـوطى . أبى حارب خلال العدوان الثلاثى ويقسم أنه شارك فى اختطاف (مورهاوس) ابن عمة ملكة بريطانيـا . هاجرنا خـلال أحـد عشـر عاما مـرتين ، ذهبنا فيهـما لدمياط ، حـيث أن أمى من تلك البلدة ، ولهذا فأنا على شـجار دائم مع محمود ، فهو يلقبنى « بالبلطاوى » وهى كلمة تعنى لديهم البورسعيدى ، مضافا إلى ذلك ، اتهام صريح بالمبالغة فى القول مع قلة الحيلة .

هذا الطاقم حارب فى أكـتوبر كما لم يحارب أى طاقـم آخر ،خضنا المعارك دون خوف ، فقدنا (عبد السـميع مصباح) . . سقط ونحن نصد هجومًا مـضاداً على تبة الشجرة . . سقط بـين أيدينا ينزف والوطن يضمد جـروحه ويخطو على طريق الخـلاص والعـلم الذى غـاب طويلاً كان قـد ارتفع . . هاهى شمس سيناء حامية لا ترحم !

عصر اليوم ، وكـان فزاع يجمع بعض الصخور ليضـعها على أطراف المشمع كى لا يتطاير فوق المدفع ، اكتشف جثة شهـيد قابعة فى حفرة قريبة من المدق الجيـرى على يسار حقل الألغـام ، هرولنا مسرعـين عندما علمنا بالخبـر ، أسرع بشندى بكوريك الفرد ، وقـبل أن نعيد مـواراته بالرمال ، أشـار محـمود أن نفـتش جيـوب سـترته ، لعلنا نعـثر على أوراق تثـبت شخصـيته ، اعترضـت فما جدوى أن نفعل ذلك ، أن المنطـقة عسكرية ، وكلـنا يعـرف أن الشهيـد يدفن أينما سـقط ، طالما الحرب قائمـة والقنابل تنفجر . .

أن عملية الاخلاء لا تتم إلا فـى أوقات السلم أو المعارك المحدودة . . اختلفوا مـعى ، كنت حتى هذه اللحظة لم أدقق فى ملامح الشـهيد ، ظنًا

منى بأن قسمات الوجه تختفى تمامًا ، لكنها رمال سيناء ، تملك القدرة على أن تحافظ على الشهيد وكأنه لم يمت إلا منذ أيام . .

ارتجفت عندما مد بشندى يده فى السترة ، استخرج بطاقة مهترئة ، قرأنا فيها بصعوبة اسمه ، حافظة أوراق بها عدة خطابات ، فردت أحداها تمزق فى يدى على هيئات مربعات صغيرة قرأت . .

« ابننا الحبيب أسامة . .

نعرفك أن زوجتكم قد وضعت مولودًا ذكرًا ، كما كنت تتمنى ولم نعطه اسمًا انتظارًا لحضورك بالسلامة . لا تنس وأنت قادم أن تحضر الشموع وحاجيات السبوع . مع تحيات زوجتكم مبروكة » .

والدتك

أم أسامة.

طويت الخطاب ، وضعت الأوراق والحافظة فى البطاقة ، أسرع محمود للملجأ ، وأحضر بطانيته الصوفية وغطى جسد الشهيد فى رفق غطينا الحفرة من جديد بالرمال ، غرسنا عصا غليظة انتزعناها من أعلى التبة ، ووضعنا فوقها خوذة (مصباح) الذى رحل !

حضر عبد الرحمن بعد مواراة الجثة الرمال ، لمحت فى عينيه الأسى والحزن قرأنا الفاتحة ، ورتل فزاع سورًا قرآنية بصوته الرخيم ، فأثار الشجن فى قلوبنا ، تجهمت الوجوه ، وتصلبت السواعد ، وظللنا نتحلق الحفرة ، ترقرقت الدموع فى أعيننا ونحن نستعيد كلمات الخطاب . يا ترى هل يرى الوليد قبر أبيه يومًا ما ؟

تركتهم وأسرعت « لمخلتى » ، أخرجت لوحًا خشبيًا صغيراً ، كتبت عليه بقلمى اسم الشهيد وبلدته ، علقتها بجوار العصا والخوذة نظر الىّ فزاع فى استغراب . قال نوار ، لا فائدة . لابد أن تقوم العاصفة ، ويتعرى الجسد من جديد .

كانت الشمس ترحل ، تطوى آخر أشعتها ، وتنسحب فى حزن وارتعاش تخيلت نفسى . . أرقد فى تلك الحفرة . أترك من خلفى طفلاً وزوجة انحدرت الدموع ساخنة من عينى . . أعطيتهم ظهرى . . وبكيت بكاءً مريراً . . مريراً !

النحيب

تفصيلات دقيقة من حياة

الجندى عبد المجيد الجنزورى

مات عبد المجيد الجنزورى ! »

حشر جسده النحيل فى الوصلة بين عربتى القطار ، وعندما جذب السائق يد الفرملة ، واصطكت العربات هوى فى غمضة عين بين القضبان وحبات الحصى والزلط ، ارتطمت الرأس بساق معدنية ناتئة ، وسال الدم قطرات قطرات . .

يا أماسى الخوف والفزع ، همهمات خائفة وليل مدنس برائحة البارود ، أفتح عينى وأغمضها على ليل متسع ونظارتى الطبية بعدساتها الغليظة فى الليل لا تكشف أسراره . والنجوم التى تساقطت فى داخلى ، أضاءت أحزانى الموحشة ، لها وميض اعتدته .

- يادُفعة . . هات الأروانة ! »

تسرع أقدامه على المدق الجيرى الذى تحوطه حقول الألغام من كل جانب ، وتمرق على الضوء المفضفض سحالى تختبىء بين أوراق نبات الصبار الذابلة ، وخنافس سوداء ملتصقة بحفرها ، يعدو بخطواته الثقيلة على حصى المدق حاملاً تعيين السرية ، واضعا بندقيته الآلية على صدره لتتقاطع ونظارة الميدان التى نزع غطاءها .

- « كلوا . . بالهنا والعافية ! »

قطع العدو خطوط الإمـداد ، تناثرت الشظايا ، وحفـرت إحداها فى صدرى جـراحا صارت ندوبا لا تندمل . حين يولـد الفجر أثبِّت بندقـيتى الآلية فى تجـويف الكتف . ألصق الخد بـنعومة الخـشب المصقـول . أكتم انتظارى وانتظر اطلالة رأس جهة المزاغل . يشيـر ناحية الشرق . ثم يخرج من خـوذته خطابهـا الأخيـر يتسـلل منه العطر ووعـود . القبـو المظلم ، والخدمة أمام مـلاجىء القادة ، صوت المذياع المكتوم فى الحفرة العـميقة ، وبصيص الـضـوء ، والنـكات الممـرورة ، والملل الزاحـف على المكان . يستند برشـاشه الخفيف عـلى حـافة الخندق ، فتـتهاوى كـتل الرمال على ركبته المتصلبة .

- سـيدى الملازم . أورنيك عـيـادة إلى « القـصاصين » . . أتسـمح بالموافقة ؟

القفـز فى العربـة « جاز » بين صناديق الذخـيرة الخـالية ، مـشاهدة الفتيات بأعين ذاهلة ، وشراء أقراص « الطعـمية » الساخنة والعودة بها ليلا باردة كالثلج ، ورواية الفيلم الذى شاهده فى سينما الجلاء بأدق تفاصيله .

- قبلها البطل قبلة استمرت ساعتين !

- ساعتين ؟

- بل ساعة . ونحن صفرنا ، وضربنا المقاعد بالأكف ، واللعين قطع المشهـد ! شهقـة الحرمان ، والوجـوه المتصلبة ، والليـل فارس يمتطى الملل ويهـجم على المواقـع ، فيـقـابله رجـال « الكينـجى » و « الشـينـجى » ، تلك نوبـات الحـراسة الليلـية والصول توفـيق يـخرج فى البرد مـتلفعـاً بضـلع « الهايك » يقضى حاجته ، ويتنحنح .

- خدمة السلاح . . خدمة الذخيرة . . خدمة التعيين !

وتتردد الصيحات ناقصة الدفء ، وإغراء النوم ، والسرحان فى الأحبة .

خريطة سيناء تشير إليها بأصبعك المبتور ، قذفوك فى قلب الجندية برغم العيب الظاهر ، رفضت أن تبوح لهم بسبب يعفيك من الانخراط فى طوابير التمام ، والزحف تحت الأسلاك الشائكة ، وظمأ التدريب . من العيب أن تعود إلى القرية دون أن تضع الكاكى فوق جسدك . لو رجعت لقولت الألسنة ، واتهموك بنقائص الدنيا .

- « عيب يافتحى أن تسرق جرايتى ! »

حين أشار القائد ناحية الشرق ، بكى ، احتضن الرجال وبكى ، قذف بنفسه إلى القارب ، تحسس بيده نعومة المطاط فى استدارته ، تذكر لحظتها طوقه الذى كان يسير به طفلا فى الأزقة . كان الدمع بلا خجل على وجنتيه .

- « خسائر الأمس ثمان شهداء ، دفُنوا فى بطن التبة ! »

تلك معاركنا الصغيرة ، كانت المعركة الكبرى ترتسم فى الأفق ، لكن متى تأتى تهتز الرؤوس حسرة ، حيث يكون الجلوس فى الليالى المقمرة حول برادات الشاى، وإخفاء بصابيص النار فى الحفر ، بخوذة قديمة مقلوبة .

- الانتظار خيانة .

- حرب الاستنزاف بداية يافتحى !

- لعن الله صمتنا . أريد أن أراهم . اللحظة .

تسبح فى الليل العميق ، وتقذف على امتداد ذراعك تلك القنابل اليدوية وتخفض الرأس ، تدفعها فى سكون المفاجأة ، تكز على أسنانك والأرض تهتز من تحتك : تك .. تك .. تك .

دفعات متلاحقة من « أبى جاموس » على المواقع فى الغرب ، صممت أن تنتزع يافطة صفراء بحروف عبرية مربعة ، قصصت السلك المثبت فى الأعمدة الحديدية ، وبكوريك الفرد ظللت تنبش فى الأرض لتحضر عظام شهيد دفُن فى حرب ماضية. كانت العلاقة لا تخطئها العين . خوذة وعصا رفيعة .

- الفاتحة على روحه ، يارجاله !

ضمخنا عطر الاستشهاد ، والعودة ، والارتماء فى أحضان الرفاق .. تلك اللمسات وخفقان القلب ، وابتسامة دبغتها الشمس . أستند بمرفقه على باب المقهى . وكانت المذيعة فى « التليفزيون » أمامه تبتسم ابتسامتها العريضة ، وتفرد بيدها الثوب المطرز بالدنتيلا ، لمحته يزرر سترته وحفيف حزن لاتخفيه كلماته المقتضبة .

- « لم يروا الكاكى ! »

تتخشب أصابعه على قطعة الألمونيوم المثقوبة باسمه الثلاثى وديانته وفصيلة دمه . أوغلت الكآبة ، وعصفت بروحة المستسلمة .

- « أمام القطار ساعتان »

طاردنا صوت المذيعة الناعم يتسلل خفية من الباب المطلى بالأزرق .

- « قلوبنا معهم .. أبناء مصر على الجبهة » .

ضحك فجأة ، ثم اتسعت ضحكته ، حتى أنه استلقى على الطوار ، وأنا لا أفهم . نظر إلىّ معتذراً : « قلوبهم فقط !! »

فى معسكر تدريب المعادى . وقبل الحضور إلى الجبهة . فرحة الحصول على تصريح من « القشلاق » ، الحذاء اللامع والوجه المصقول .

قال لى فى تردد أنه يجد متعة فى السير بين المقابر . الصمت الخافت ولسعة البرد ، والشواهد الرخامية تجاور الأبنية المقوسة التى تتناثر فوقها أوراق السعف الأخضر ، الممرات المعشوشبة مغسولة بمطر حزين تستوقفنا يد آمرة ، ومضات من انكسار ، تلوح الأيدى بالتصريح والرقم الكودى فى الخاتم الأسود المستدير .

– هيا نجلس فى المقهى ! »

فى صدره أمنيات أفلة ، يمسك جوزة المعسل يمد يده ، يعرف أننى لا أدخن على مشارف « أبى صوير » وقفت سيارة جيب ، وقفز منها الصول « توفيق » رأيناه يتلفت حوله . وهو يقايض بائع البطيخ ، ويلح ليعطيه قفص شمام بصفيحة البنزين .

لكزنى الجنزورى فى صدرى ، وسبه سبابا متواصلا ، ود أن يهجم عليه فى تلك اللحظة متلبساً بجريمته ، لكنه أصفر ، كثعبان ، يخلص نفسه – من جرائمه الصغيرة – كالشعرة من العجين !

فى بطن التبة زحفنا ، وضربنا الغاز فى فايد ، وعندما خلصت الذخيرة ، خبأ عبد المجيد عدة طلقات فى خزناته الأربع ، دخل علينا الصول توفيق الملجأ فى نوبة تفتيش مفاجىء ، تلون وجهه بالغضب ، أخرج باصابعه الرصاصات ، صفع الجنزورى وظنه يسكت ، فرد الصفعة صفعتين.

-دوّر مكتب ياصول توفيق !

هل دخلت السجن يافـرج . حلق شعر الرأس « زيرو » . . وامتـهان الكرامة !

- سم نفسك . . باسم امرأة . . أسرع ! بقبضة يده لكمه ، ونز الدم من بين أسنانه ، ارتمى على أرض السجن متخاذلاً ، تكوموا فى الأركان . مد أحدهم يده المرتعشة بسيجارة « كليوباترا » : « خذ دخن . . روق دمك » .

ركله بحـذائه ، وقبل أن يدفـعوه إلى المكان ، كـانوا قد انتزعـوا منه قايش الوسط وغطاء الرأس : « لا بأس » .

الحرس بالخارج ، وألواح الصاج المتعرجة ، وقف فوق رأس زعيمهم ، فمه يغمغم بكلمات منكسرة : « لم أقصد . . تقاليد السجن ! ».

أقعى يمسح خيط الدم : « لا تبك . . ألست رجلاً » .

احتضننى ، وقبلنى وساعتها شعرت بلزوجة الدم على جبهتى .

حين حملتنا قوارب المطاط ، غاصت أقدامنا فى رمال ملتهبة ، وحلق الموت فوق الرقـاب . رأينا توفيق يخفى فى المؤخرة جـركن الماء ، ضربناه بقبـضاتنا لم يفتح فمـه . . وزعناه على الزمزميات ، وحين امـتدت الأيام وحاصـرتنا المـدرعات على التـبة حفرنا بأظفارنا فى الرمال بحـثا عن ندعة ماء : ياأم هاشم . . ياأم هاشم !

حدثنى عن هجرته من القرية إلى المدينة ، صعدت معه الدرابزين إلى غرفته فـوق السطوح ، قابلتنا الأم بجلبابها الأسود الممزق من كتـفه « ضبة ومفـتاح » احـتضنتـه ، شدت على يدى . قـدمت لنا الشاى فـى أكواب

زجاجية رخيصة ، فى تلك الغرفة قابلت « أسماء » . كانت تفتح كتابها وتذاكر على لمبة جاز نمرة عشرة ، والنمش الخفيف بوجهها خطف قلبى ، وابتسامتها الطفولية، بجرأة لا أملكها ضغطت على يدها ، ضحكت . أخفت وجهها خلف الصفحات ، ظلت تتلصص على الحديث الدائر : « الكيمياء صعبة » .

قلت : « يمكننى أن أساعدك ! »

زغرلى بعينيه . وكانت الدجاجات التى تربيها أمه فى السطح تتقافز وتكاكى وديك له ريش ملون فرد جناحه على استقامته وظل يدور حول نفسه ، ثم قفز فى الهواء وسكن .

قامت ترقيه بالشبه والفاسوخ . . ثم راحت ترقى المكان . ترمى رأسه بحبات الأرز والملح وكلماتها المنغومة تدهشنى .

« قل إلهى يشفيك . . من كل داء فيك والله يجازيك . . من ضربة عينيك . . ياحاسد » .

بحة حزينة تختفى فى نبرات الصوات ، نثرثر فى الماء . وتنتهى الإجازة الميدانية ، يتلاشى الفرح ، ونهيم فى أحزان لانهاية لها .

تفرس فى وجهى وهو يعدّل بيده عامود التصويب فى انحدار التبة ، ترجمه ذرات الرمال الناعمة ، وننوء بأثقال يقظة تتواصل بلا نوم . ترف ابتسامته الشاحبة ، فأقول : كل شدة تزول . وكل حرب تنتهى ! أوغلت الكآبة فى نفسه وعصفت بروحه ، كان لايريد العودة إلا وقد سوى حساباته : أريد أن أشفى قلبى من هذا الوجع !

أخضلت عيناه بدموع أنحبست لأيام وليال . زارنا فيها الموت والجرح والدم المنثال كانت خـوذته تخفى حاجبيه . أتأمل أصـابعه التى تقبض على الرمل ، تقذفه فى كومات متتالية : أريد أن يشربوا من نفس الكأس الحنظل !

وكنت أهزه من كتفيه : لقد أوقعنا بهم الهزيمة .

فيرد علىّ حزينا : لا أريد أن أخـذ ثأرى بطلقة أو شظية . . أريد أن أخنق بيدىّ عنق واحد منهم .

ولما سمعه الرفاق - فى الخندق - يكررها ، اسموه « الخنّاق » . وحين تقدمت الحـرب وقمنا بعمليـة تطوير الهجوم على المحـور الأوسط ، أصبنا دبابة « ستريون » وتسـاقط الأفراد بين أيدينا ، وكاد يفعلهـا مع أحدهم ، لولا صيحة القائد !

توقفت الحرب فجأة ، وعاد إبراهيم بساق مكسورة ، ورجعت السرية وقد فقـدت أربعة شهداء . كـانت زرقة القناة خلفنا على البعـد ، وأمامنا تمرق مـجنزراتهم وجلة كالخنافـس الحذرة . وكـان قبـضتـه تضـرب فى غيـظ خـوذته التى خلعهـا . بحثت يده فى « الجـربندية » عن متعـلـقات الشـهيد « مدحت أبو عبده » . قـبض عليها فى أسى ، شعرت بما يختلج به قلبه من مشاعر . شـددت على يـده ، وخـز فى قلبى ، طموحـات تعبى : « الحرب لم تنته . . لنا عودة »! .

الضوء الكابى يسقط على الشوارع ، يصفر بفـمه لحنا يعجبه ، سترته المفتوحة تبرز شعـر صدره الفاحم ، ينظر إلى ساعة يده . . يكمل لحنه فى خفوت . الحلكة تحـتويه ، أتسمر فى مكانى وهو يرقص فـجأة فى الشارع الخالى من المارة . أصاحبه فى الإجازة الأخيرة . يمسكنى من كتفىّ ويضغطهما :

- « أتحب أسماء ياولد !»

وشيش الوابور وهي تعد الشاى ، الأم مريضة ، تسند رأسها على ثوب قديم طوته ، تسعل فى انتظام ، انظر إليها خلسة ، تلوح لى بيدها ، وتأتى تجلس فى ركنها بعيد ، تبتسم لحكاياتنا الأسيانة ، يقول عبد المجيد بلا مناسبة ، وهو يرشف من كوب الشاى : « من الحرب ياأمى .. شربنا بولنا ! »

تدفن أسماء وجهها الخجل فى كراستها ، أضيف : « وأكلنا الخبز العفن » تضرب الأم صدرها بيدها ، ولا تفهم إلا بصعوبة أن الحرب توقظ فى الإنسان غريزة البقاء بأى صورة . تصك أسماعنا خبطات بائع اللبن « الحليب » وهو يوزع اللبن على الأدوار التى إلى إسفل ولا يصعد إلى غرفة السطوح ، وهو يدندن بصوته الرفيع : « خلى السلاح صاحى » ..

سرحت من الجيش بعد الحرب بأشهر قلائل ، وبقى عبد المجيد الجنزورى ، يكمل مدة الثلاث سنوات .. أقابله خلال إجازته : « أصبر .. كلها أيام .. وتعود إلى ورشتك !» فى آخر مرة زرته ، صمم أن يصحبنى ليرينى تلك الورشة فى « حارة البركة » فتح المزلاج الصدىء ، أجلسنى على المقعد الخيزران المتهالك ، أرانى « أزامل » متعددة الأشكال والأحجام ، وأقسم أن يهدينى حجرة صالون من صُنع يده عندما أتزوج ، غمز بعينه ، وصدى شكوكه تحاصرنى :

- « أنفرح بك قريبا ؟ »

كنت قد صممت على ألا أفاتحه فى الأمر إلا بعد أن أجهز المال اللازم . أبصرت فى شق بالسقف برص يطل برأسه ، ويهز ذنبه . كان وجهه شاحبا .

- هـذه المرة - على غـير العادة . عـبق المكان برائحة عـطنة .. كز على أسنانه .

- « آه من وقف الحال » .

كان يقـولها من أعماقـه بأسى وحزن ، فأخرجت من حـافظة نقودى مبلغا من المال ، فشـتمنى وأشاح بوجهه غاضبا : « أنا لا أشـحذ .. عبد المجيد أسطى ياولد !»

أعرف أن الدواء ، الذى يشتريه لأمه يحتاج إلى مال لايمكنه تدبيره ، وأن أسماء تحـتاج إلى كتب وأقلام . علمت مـنها حين قابلتهـا صدفة فى شارع « النصر » أنه قد باع « عدة » الشغل ولم يرض أن يمد يده لأحد !

* * *

قال المحقق وهو يغلق أوراق قـضية موت عبـد المجيد الجنزورى : أن الحادث قـد وقع قضاء وقـدرا .. بدافع حرص المجنى عليـه رقم عسكرى ١٤٥٦٧٢ رتبة عريف عبد المجيد السيد الجنزورى على عدم دفع قيمة تذكرة القـطار ، مما جعـله يـعرض نفـسه للخطر بالركوب بين وصلتى القطـار ، والارتكاز بالبيادة على الأكصدامات ، فاختل توازنه وقضى نحبه .. » .

تنبثق فى صـدرى كل أحزان العالم ، ، أتملى الكلمات فـتخذلنى ، الغصة تملأ حلقى ، أخطو كالمنوم وأطرق بأقدامى الواهنة أسفلت الشارع . أضواء النيـون تزغلل نظرى وأشجـار الكافور على الطوار مطـرقة فى أسى أقترب من النهر ، وأهبط الدرجات الحجرية أدلى يدى فى تيار الماء البارد ، أبكى الرحيل الغادر ، وأنصت لكأن النهر يشاركنى النحيب !

أيام الزهو الرمادية

بـــــــداية :

اصطكت أسنانى وأنا أتبعه. الهواء المشبع باليود يهب كعاصفة خجولة لايكبحها رذاذ المطر الذى يطمس ضوء الفوانيس المتباعدة على الإفريز الرمادى تلك الليلة التى انتظرتها طويلا . أتحسس ذقنى الحليقة ، وأدس يدى فى جيب سترتى ، وأقرأ الورقة المطوية فى طرب . عادت لى حريتى المفتقدة ، وشعر رأسى الذى كان يدفعهم للسخرية ينمو بعد أسابيع ، وبشرتى التى صبغتها الشمس ..وتلك النظرة الشاردة التى اتتنى خلال أيام التجوال ، وحمل صناديق الذخيرة ، وتنظيف « الهاون » . وسط نظرات تندس فى الرمال العقيمة .. لازرع ولاثمر . « انعطف .. على الناصية المقابلة أحدثها » الشارع المرصوف عندما يتفرع إلى أزقة يمكنك أن ترى برك الماء تنحسر هنا وهناك عن مكعبات البلاط البازلتى المعتم ، أتذكر تباب الرمل ، وطوابير الاصطفاف صبيحة كل يوم ، والأذرع التى تؤدى التحية العسكرية قسراً .. وأجساد الصعايدة المنتصبة تحت شمس لا ترحم . أوامرهم العجولة .. صراخهم .. وطلقة فى الساق .. بركة دم .. تنزلق الخوذة ويهوى الجسد .. « الأوامر يا رقيب زغبى أن نخلى الموقع وننسحب » .. « والله لن أتركه حتى لو سقطت بجواره .. » السيارة الجاز تدير محركها .. يشدنى عبد التواب الزغبى من ذراعى : « إركب يامجنون » .. والظلام ستر وغطاء . أبكى الرجل الذى فتناه .. تنهال القذائف حول السيارة .. تمرق وسط جحيم الشظايا واللهب ، تشق طريقا يحفه الموت .

تعـــــارف :

مدى لـى يده بلفافـته المشـتعلة ، وأجلسنى على طرف سـريره الذى صنعه من الصاج المضـلع ، وغرارات الرمال . نفخ فى الحفرة بفـمه حتى برزت العـروق فى رقبـته النحـيلة ، واحـمرت عـيناه ، وشهق والدخـان يتصاعـد تنشب النار فى بقايا خشب مـتفحم يحركـه بيده . . يخلع غطاء زمزميته من جرابه السميك ، ويصب بعض الماء فى البراد : « أهلا وسهلا أنا سيد جابر » . الإجهاد نال منى ، ابتـسم « يبدو أن حضرتك مهندس أو مدرس . . النظارة التى على وجهك توحى بذلك . » البروجى يقطع حديثه المرح يُخرج رأسه من الملجأ : « حاضر حاضـر » يتركنى فى الخندق . أحاول أن اعتدل دون جدوى ، فأقواس الحديد التى تصنع هيـكل الملجأ لا تسمح للقامة أن تفرد . . أتابع تجـمعاتهم فى هرولة كـسولة . والشمس صفـراء بلون ثمار المانجو التى تظل أشـجارها أرض الموقع . والطريق على مرمى البصـر يظهر ويختـفى خلف سـواتر الرمال ، ومـسطحات زرقـاء من بعيـد تبـدو . . وقد هجـرتهـا طيـور النـورس . . صـيـحـاتهم الملولة تأتـينى ، تنتـزعنى من خـواطرى . . أتحسس كتفى . عشرات الكيلومترات مـشيتها حاملا « مخلتى » ، وبندقيـتى الآلية وخزناتى الأربع ، لألحـق بالكتية الشـامنة عشر على ضـفة القناة الغربية . صوتهم يقذفه الهواء مهـمهما . . أرقبهم ينصرفون . . يأتى عـدوا . . يصفر بفـمه لحنـا مميزا « ألم تصب الشاى ؟ » يخلع غطاء الرأس . . يمد يده بلفافة أخرى . أرفـض . يضـحك وهو يمـد ذراعـه « لا تبتئس . . هذا المنزل صار لك . . أتقاسمنى إياه ؟ » .

ضحـكتـه تلـون الفـضاء المترب وسط عتـمة الليل . وجـوه الرفاق تبتـسم ، تخلع العناء والانتظار « أرقص ياجـابر » . يخلع سـترته ويحزم

وسطه .. يجعلهم يصفقون .. يدقون بقبضاتهم على صناديق الذخيرة الخالية .. يهتز فى إيقاع محموم .. يطوح رأسه ، وصوته المتقطع يرتق الصمت : « سيد جابر » . يردون فى مرح : « يا ابن الأكابر » تتسارع صقفاتهم .. يقوس جسده صانعا بجسده دائرة كاملة .. الرأس والقدمان متقاربان .. الشاويش الزغبى بشاربه الكث .. « السرية تكدير .. أوامر الضابط حلمى » . كان الظلام فى الخارج يتوغل فى بقايا الضوء . ونجمة وحيدة رأيتها تهوى ! .

حـــب :

فتحت لى الباب ، رأتنى فواربته ، ضحكت فبانت سنتها المكسورة ، الوجه فيه نمش والعينان عسليتان . مدت يدها ، سلمت : « تفضل ! » . جاءت الأم . أمسكت يدى . أقسمت أن أدخل ، مددت يدى بالخطاب ، ضحكت فى عتاب :« وهل أقرأ يا ولدى بعد كل هذا العمر ؟ « نظرت إليها استفسر ، فهمت الأم : « خيرية تغير فى كلام الخطاب حتى لاتغضبنى » . دخلت وقفت فى وسط الحجرة حائراً . بحثت عن مقعد ، فأحضرت حشية مهترئة وأجلستنى : « كيف حال سيد فى الجيش ؟ » . انظر إلى الجدران التى تزينها رسوما لدياب يطعن عدوه الذى يركب فرسا بأجنحة .. أستدير لأنظر إلى الجدار المقابل . الجير المتساقط لا يكشف إلا عن معارك لأناس تآكلت وجوههم بفعل الزمن .. تقدم لى كوب الشاى . تضحك ثانية ، ارتاح لجلستها أمامى . أحدثها عن سيد جابر وتحدثنى عن دروسها الصعبة . وتتحدث الأم عن زوجها الذى فقد ساقه منذ سنتين بالمصنع الذى يعمل به ، وعن ساق صناعية يطالب بها الشركة دون جدوى : « إكتب لنا شكوى جديدة ؟ » انظر إلى الزقاق الضيق فى غيط

العنب . من النافذة الضيقة انظر . النسوة الجالسات فى انتظار مالا يأتى .
الوجوه المعروقة . الأطفال الحفاة ينازل بعضهم بعضا . يتشاجرون فى ألفة
« الشاى يبرد » . أمسكت القلم ، وجلست أكتب شكواها . . دقات على
الدرج . . دقات موجعة رتيبة . الأب يعود أشعر أننى بين أهلى . الدفء
المفتقد يسرى داخلى : « إزيك يابنى » يسعل وأرد « أزيك ياعم جابر ! »
يرتمى بجسده النحيل على الحشية جوارى : « عينتنى الشركة حارسا ليلياً »
نظرت إلى خيرية ، بحثت فى عينيها ونقبت عن بذور انكسار . لكنها
شهقت فرحة : « مبروك يا أبى » . فتح علبة لفائفه الصدئة ، قدم لى
واحدة ، أشعلها لى بعود ثقابه . جذبت نفساً عميقا . حدثت نفسى :
« هذه البنت صرت أحبها » .

قالت الأم : « ومتى تستلم عملك الجديد ؟ » . نظر إلى الفارس
المطعون .تنهد : « سأرفض ذلك العمل . . هل سمعتم عن حارس بساق
واحدة » ؟

حــــــزن :

لماذا تبكين ياخيرية ؟ « يهتز جسدها ، يتهدج صوتها، وأشعر بسخونة
دموعها ، تستند برأسها على صدرى : « أخاف الغد . أخاف أن أفقد هذا
الحلم ! » . نقترب من حاجز الأمواج . . الرذاذ الملحى يعلو الرؤوس .
أتمتع بمشاهدة تلك الموجات المتكسرة على الصخور القريبة ، يمر بياع الذرة
المشوى . أتذكر العودة فى الغد إلى الدفرسوار " « إحمل القاعدة » « ضع
الماسورة » . . « صوب المدفع فى أقل من ثلاثين ثانية » . . « هل أصبت
الهدف ؟ اقترب من الموقع وحدد الخطأ » . . « قائد الكتيبة قرر حرمانكم
من الإجازة الميدانية » .

عندما رأتنى بشعرى الحليق ، ضحكت . نوبة من الضحك استولت عليهـا ، وكلما تماسكت . نظرت من جديد وعادت تضحك ، لما سألت السبب قالت : « كنت أريد أن أرى أخى سيدا حليقاً » . عندمـا عدت وأخبرته بما قالت . كشر عن وجهه . صاح بى : « لو ظللت عشرة أعوام بهذا المنظر مانزلت إجازتى » . صرت ياخيرية واحتى التى أستظل بها فى هجير الوحدة والمعاناة !

حـــرب :

كانت دبابتـهم تتحرك على المدق الجيرى أسفل التبة ، صوب سيد جهازه ، وأدرت المقبض فتحركت الماسورة بضع بوصات يسارا . الطائرات تغطس فى الغرب وتنقض على مواقع الرفـاق . يده اليمنى تشير للطاقم أن يستعـد . صناديق الذخيرة متناثرة من حولـنا . الشاويش زغبى أنزل يده ، فانطلقت القـذائف . استدارت الدبابة فى صعوبة موجـهة ماسورتهـا تجاه موقعنا . انفجـرت القذيفة الأولى فى بطن التبة . تناثرت الرمـال المحترقة من حولنا . مـلأت رائحة البارود الأنف والعيون . انحـرف المدفع وسقط جهـاز التصويب وتآكل إطار العـدسة المطاطى الأسود . كـانت « الباتون » تقترب حثيـثا . فاعمل حسنى رشاشه الخفـيف . انطرح جسد قائدهم من البرج ، وجـهاز اللاسلكى يتدلى مـن صدره ويتأرجح . والعـبرية التى لا نفهم منها حرفا تصل إلى مسامعنا فى نبرة انزعاج .

هرولنا إلى الموقع التبـادلى ، تاركين المدفع الذى صار غيـر مؤثر فى التعامل مع مـجنزراتهم اللصيقة بحـفرنا . قرأنا الشهـادة . . وصوب كرم قذيفته (الفهد) فاختـرقت الفولاذ وانفجرت . . كانت كتل اللحم اللزجة تختلط بالصلب وسط انفـجارات متوالية . ورائحـة الدخان تحيط بالموقع .

أخرجت صورتها . تأملت العينين ، ورائحة اليود تأتى عبر المسافات تقبض بيدها على يدى . أشم رائحة عرقها وعطر فواح .. قذائفهم تنهال علينا .. مواسير المدافع تضرب فى جنون وددت فى هذه اللحظة أن أذهب إلى غيط العنب . أجلس على الحشية وأشاطرهم أحزانهم العميقة . كانت طلقاتهم تخرجنى من أحلامى المحلقة ، وتقذف بى فى جحيم الحرب ! .

اقتربت جنازير دباباتهم من أجسادنا ، وهدرت من حولنا . دانة انفجرت وأصابت الموقع إصابة مباشرة . قذفت بجسده النحيل . انطرح على ظهره يئن « آه .. آه .. » .. « قم ياسيد تحامل على نفسك » « آه .. آه » .. « استعدوا لمغادرة الموقع » كانت ساقه تنزف ، والدم يتسرب بين ذرات الرمال .. خلعت (ضلع الهايك) وربطت الجرح . لم يتوقف النزيف . الضابط حلمى وقد فقد خوذته أمرنى بحمل المسند . الشاويش الزغبى ربط الماسورة على ظهره وزحف .. كانت القاعدة قد غاصت فى الرمال ، وانحشرت : « اتركها ياكرم .. اتركها » . لكن كرم انتزعها وزحف هو الآخر : « لنترك المسند ، لنترك الهاون بكل أجزائه .. لكن سيد .. سيد » حتى الدموع لم تذرفها عينى ، ولا أعين الرفاق ، لأن الموت الذى كان يحاصرنا ، ودبيبه الذى سرى فى عروقنا قتل فى داخلنا الإحساس بالأسى . السيارة الجاز فى الخلف تدير محركها . مد يده الغليظة . كاد يصفعنى « اقفز ياغبى .. ياابن ال .. » . جذبنى والمسند تصلبت يدى عليه ، والدبابات لاتكف عن قذف حممها . وصوته الأليف يأتينى ، وجدتنى أبكى ، دونما دموع . كنت أندب والسيارة تتحرك فى صعوبة على مقربة من حقل الألغام بايقاع جنائزى راقص « سيد جابر .. يا ابن الأكابر » .

أســـــر :

يرقد غـائبـا عن الـوعى ، وعـندما يـفـتح عينيه يفـاجأ بالضـمادات تحوطه ،وبرائحة المطهرات تنفذ إلى أنفه . يده القابضة على ملاءة سريره ، عالق بها ذرات رمال . تقترب منه إحداهن ، تبتسم ، يجاهد ، يحاول أن يبتسم . لكن اللكنة الغريـبة والابتسامة المصطنعة تجعل ابتسـامته تشحب . يحرك فـمه محاولا الصـراخ تقترب منه بزيـها الأبيض المنسق : « ممنوع » تقـولها وهى تضع إصـبعهـا السبابة أمـام فمها الـواسع النهم . يعرف أنه الأسر ، ونسائم الصباح تحرق رئتيه !

وقتها ، كـانت الحرب قد توقفت . بدأت كتيبـتنا تحصى خسائرها . سيـد جابر فى عـداد المفقـودين . كلفت أن أبلغ أسرته بذلـك فى الأجازة الأولى بعد توقف القـتال . قبل أن نركب الجار انحنى الزغـبى على الجسد النازف . خلع ساعتـه وخاتمه الفضى ، ثم شال بندقيتـه ، وقفز فى العربة الجـار . مد يده بـالتـصريـح ، وبالظـرف الأصـفـر الكبيـر الذى يحـوى متعلقاته . بعد أن وقع فى الكشف الشـهرى أعطانى نصف راتبه وكذا فعل أفراد الطاقم . كنت أحمل فى أنفى تلك الرائحـة التى صارت لاتفارقنى : البارود المختلط بالرمال الخشنة ، طعم الدم والجوع والفزع . أفرولى الكاكى به بعض القطوع . وبيـادتى التى لم أخلعها ليل نـهار أشعـرتنى بالضيق . أنتهت الحـرب . الوجوه من حولى فى مـحطة القطار منبسطة . والعـيون مفتوحـة تبحلق فى البنات المشوقات . وأنا أحـمل نصف أحزان العالم . كيف أخبرهم ؟ ألقى بنفسى فى العربة المواجهة لى قبل أن تسكن . المقاعد كلها مـشغولة . . آت من الجبـهة . . ألا تشمون رائحـة الموت . . البلادة ألمحها فى الوجوه . الحقول الخضراء تمنحنى بعض راحة أفتقدها .

أسير فى الأزقة المتقاطعة المنقوعة بيوتها فى بركة آسنة من الفقر والرضا . اقترب من المنزل . ماذا أقول لخيرية ؟ . الدرج الخشبى أصعده . حزنى له ملمس خشن يمزق داخلى . على العتبة الأولى نسوة يعرفننى . يشهقن عندما تقع عيونهن على : « أين سيد ؟ » أدق بقبضتى الباب الخشبى المتسخ . . خطواتها المسرعة تقترب . . تفتح لى . . بلا وعى تحتضننى ثم تبتعد خجلة . الأم الجالسة بالداخل تتسع عيناها . ثم تنخرط فى بكاء مرير : « أين سيد ؟ » أستند إلى الجدار . يغمز لى دياب بعينيه . يلكز فرسه الأشهب . يرفع رمحه المسنون ، يصوبه نحو الأشرار . ثم يتنزع سيفه من جرابه ، يلمع فى وهج الشمس . يحركه يمنة ويسارا فتهوى جثث الخصوم . تجلسنى أم خيرية بجوارها . « لماذا لم يحضر ؟ » الجير يتساقط فينكسر السيف . وخيرية شعرها الأشعث يخفى الوجه الباكى . تصلنى نهنهتها . . تركناه ينزف . . كانت دباباتهم تحوط الموقع . . حاولت . . حاولنا . . لكن ! . . تقترب خيرية وصوتها يتشرب بالأسى : « مات » . قلت : « قد يكون فى الأسر » . بكت : « وقد يكون حفنة من تراب . ألم تكن معه . لماذا تنكر موته ؟ . .الأب ودقاته بالساق الخشبى ، يدخل من الباب الموارب . . يربت على كتفى ، يلوح بمظروف أصفر باهت : « اطمئنوا . سيد حى يرزق . . تلك رسالة الصليب الأحمر » . تقفز خيرية فرحة . تنهنه الأم . التفاؤل يمتزج بشجن خفيف . . أخرج وحدى .

سفـــر :

كان صوتها ، مبحوحا ، استبقت يدى فى يدها للحظات ؛ « لاترحل » . . كنت قد حجزت تذكرة السفر فى جيب بنطالى الذى ارتديه . والنقود التى استبدلتها ، وعنوان ابن خالتى « هند » بالدمام . .

البحر عار أمامنا ، وشيشه الأليف يحتوى صمتنا . كانت الكلمات نافرة مدببة مبتورة . خرجت من الحرب لا أملك من الدنيا إلا ذكريات كالجرح . حاولت أن أهرب من نظرة عينيها المتسائلة . مندفعا كنت إلى عالم غنى بالنفط والبنكنوت . ينقذنى من فقرى الذى ورثته أبا عند جد . . جففت بمنديلها الحريرى الأبيض . . رذاذ الأمواج الملحية . سرحت شعرها المنسدل بنعومة بأصابعها الطويلة . نظرتها حزن ومهابة . . أريد أن احتضنها ، أشعر أنها تريد . لكن ذلك الصمت المنهك وحركة الأمواج الشفيفة ، والزبد الذى يتكون ، يتقلب كحزننا الأبدى منعنا ، وكبل فينا المشاعر : « صباح الغد أسافر » . . انحناءة عنقها واهتزاز صدرها : « لم نكن لنستطيع أن نبقى طوال العمر . . نسير فى الطرقات متشابكى الأيدى . . نأكل الذرة المشوى . . والعمر يتقدم ! » حدقت فى وجهى ، لاتفهمنى خيرية . تخبط بيدها الحاجز الصخرى . الخلاء من خلفنا . . والسيارات تمرق مثيرة عفار كثيف . . هدير أمواج البحر رتيب : « أتذهب بعد كل هذا . . الحب ؟ » غلالة الدموع وانين مكتوم : « من أجلك أسافر ! » .

عـــودة :

سنوات بعيدة ، مرت وعرة ، هشة ومتصلبة أيامها داكنة الملامح ، وغامضة لياليها ، متناثرة أحداثها ، ممتزجة بشجن صوفى عميق . سيد جابر الذى فارقته وفارقنى صارت بيننا جفوة بعد مودة . أطياف الأمس تجتاح المساحات المعتمة فى قلبى ، فتنير روحى . أرضخ للأحزان وبها . يرتعش حنينى . . ضباب كثيف يحوط أيامى الفائتة . . وخيرية شذاها يطوقنى . . تلك الأيام الرمادية التى انقضت لم تزل تحفر داخلى أنهار

شوق . . تبدلت السنون ،وعرجه الخفيف يثير فى نفسى الوجع ذاته . غيط العنب الحى السابح فى سواد حالك بلا ضوء نحيل يخترق ذلك السكون . تمرق طيور النورس وأنا أعطى وجهى للنسمات الطرية الطازجة . يحاصرنى ظمأ قـديم . . ذات السنة مكسورة تأتى من الـبحر يقـذفها المـوج المتلاطم تضع يدها البضة فوق يدى . ضحكتها الـصافية . ذهبت ملتفا فى معطفى القديم . نقرت الباب بإصبـعى : « تفضل » . أدخلتنى حجرة « صالون » مـذهب بعد أن سلمت عـلى فى ارتباك يشـوبه فـتور . أجلسـتنى فى ود مصطنع ، لم تفتح ذراعيها لتحـتضتنى . منذ سنوات كانت تفعل . انكسر حلمى . . انكسـر . . تأملت الطلاء وقـد غيب خلفـه النقوش القـديمة . رائحة الزيت تزكم أنفى . جلست على المقعد البـعيد . لم تضحك ، فلم أر سنتها المكسورة . وغاب النمش وراء طبـقة البودرة : « حمدا لله على سلامـتك ! » . كلمات قـيلت كتـأدية واجب . ملمـسها قـذف بالكرب يحتوينى . يحـز فى روحـى . تمليت وجـهها . آه من البـعد يا أحباء : « إشرب كوب الشـاى » . الأم الطيبة تمد يدها ، تقصينى أفكارى المشـتتة عن اللحظة ، أطرق . تنظر إلى وجهى غاب الخجل القديم : « متى عدت ؟ » تـدير فى إصـبعهـا « الدبلة » الذهبـيـة ، تديرها ، أركض فى المسافـات الوعرة . أطلق أيها الحزن روحى المجهدة . . يدخل سيد جابر . . يعصرنى شـوقـا . يحاول بابتســامته المــرحة أن يخفف عـذاباتى . الظمأ يـجفف روحى . . « إحمل القاعـدة » . . « ضع الماسورة » . . « صوب المدفع فى أقل من ثلاثين ثانيـة » الظمـأ . . الظمـأ . . آه . . آه . . « قم يا سيـد » . . الشظايا الملتهبة . . انفـجارات الدانات تمزقنى أشلاء . . الملم ذاتى . . هذا إصـبـعى البنـصـر . . وهذه أذنـى . . تلك رئـتـى . . قطـعـة من القلب

الممـزق . . الملم ذاتى الدامـية النازفـة . . أخلعـها من ذرات الرمـال التى لصقت بها . . لكن دانة أخرى تقلف بالجسد النحيل . . جسدى .

السـفر خلف سـراب النفط لملمى مـعى ياخيـرية . . أعرج يا جـابر وأنقذنى . . رمح دياب ينغرس فى صـدرى . . أنحنى ثانية ألملم ذاتى . . المثقلة بعذابات سنين جافة قفـراء . ثقبت الرصاصة الخوذة . . الملم أحزانى المغسولة بالتعب . . أشتاق البحر . . البحر !



٢٤ ساعة

(إلهى وأنت جاهى .. تنصر بلدى على مين يعاديه وتخلى الزرع زاهى .. ويسيل النيل ع النخل ويسقيه) .

بعض ما ترنم به صاحب هذه السطور قبل عبور العساكر مياه القناة ويجدر التنويه بأن الأحداث المذكورة مرصودة من الذاكرة ومكتوبة بعد إنتهاء الحرب بأربع عشرة عاما بالتمام والكمال .. ياسادة ياكرام ونستمحيكم عذرا إن حدثت بعض الأخطاء غير المقصودة فى تسلسل الأحداث وتفاصيل الوقائع .. فما جرى فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ يحتاج لتسجيل بأحرف من نور وشظايا و .. صلوا على النبى المختار .. اليوم السادس من ذات الشهر .

١ - الساعة ٦ صباحا :

رجعت مع أول ضوء إلى فصيلة الـ م . ط . عند بوابة النقطة استوقفنى العريف توفيق قبل أن يسلم نوبتجية الشينجى ، أنزل « الزنط » فبان وجهه متهللا على غير العادة ، سألنى بلهفة : هل معك سجائر ؟ هززت رأسى بالايجاب فاغتاظ ومد يده فقدمت له سيجارتين . سألنى ثانية : : والأكل الملكى ؟ حدجته بنظرة مستطلعة : نحن فى رمضان ، أنسيت ؟ قال : سأحتفظ بكل شىء حتى ساعة المغرب . الفصيلة لن تترك معك غير الأفرول . لو كان يؤكل ماتركوه !

كان الجنود قد بدأوا فى احتلال مواقعهم خلف المواسير كعادتهم كل صباح ومع خيوط الفجر الأولى ، ينفضون الكسل والنوم ، صاح بى

عبد النعيم مشيرا بيده : الخطابات .. أين ؟ جرى ناحيتى والموقع ينفض آخر آثار الاسترخاء . وخلفى رجال سرايا المشاه يتدافعون ناحية حفرهم ومصاطب الدبابات فى المواجهة كأنها تصوب مواسيرها نحوى .

٢ - الساعة ٧ صباحا :

رفعت الحالة إلى أقصى درجة .

كان رجال الإشارة يتلقون الأوامر . ويفكون الشفرة ،عرفت أنها مناورة كل شتاء . حمدت الله أننى رجعت من أجازتى صباح اليوم للمشاركة لاحظت أن الأجازات أوقفت ، ورفض المقدم صلاح اعتماد أورنيك عيادة . قال لصبرى الطحان : انتظر فى الغد يكون الفرج!

٣ - الساعة ٨ صباحا :

جاءت الأوامر بالأفطار . رفضت الفصيلة إلا مصيلحى الذى رفع زمزميته نحو فمه وراح يعب الماء عبا . ضربناه كعادتنا فى مرح . بعد أن انتهى صوب نظره ناحيتنا : بكرة قطرة الماء تصبح عزيزة .

٤ - الساعة ٩ صباحا :

جهزنا شدة الميدان كاملة ، ورجال قذائف « الأفعى » احتلوا حفرهم العميقة . تذكرت منازل الإسماعيلية المهدمة . والشوارع الخالية ، وأنين الأوتار المشدودة لرجال « الأرض » يعزفون على السمسمية » وعضم أولادنا .. نلمه نلمه .. ونعمل منه مدافع .. وندافع .. » بالأمس رفض بائع البليلة - فى حى العرايشية - أن يأخذ مليما واحدا . قال : أدفع معى هذه العربة حتى الناصية المقابلة ، ربنا معك أنت تشبه ابنى مصطفى الخالق الناطق . إنه فى سلاح البحرية . غواص ابن غواص .

أتعرف أننى عبرت المانش فى شبابى . ضحك فبانت أسنانه السوداء الهتمة . مضيت أترنم بالأنشودة : « . . وعضم أولادنا » .

٥ - الساعة ١٠ صباحا :

وقع عبد المسيح فى حبائل بركات . طالبه بأن يدفع فورا كل ما اقترضه لأن الحرب على الأبواب . وإلا ما معنى أن توقف الكتيبة الأجازات . ويعيدوا من قيادة اللواء كل المساجين . قال الملازم عبد الغفار لبركات : لاتخرف . اترك الرجال يرى شغله . كان الوحيد بيننا الذى يمسح حذاءه كل يوم وكأنه مقدم على فرح . قال عبد المسيح : هذا الولد - بركات - كلامه صحيح . تعالوا . أصعدوا برج المراقبة . سيارات اليهود تعدو فى كل الاتجاهات و « أبو جاموس » طلقته والقبر !

٦ - الساعة١١ صباحا :

صرفوا لنا التعيين الجاف ، ومعلبات الفول كانت متوفرة . صاح بركات : الطعام الوطنى . سمعه الملازم عبد الغفار قال : أحمد ربنا ، فيه كل البروتينات اللازمة . ضحك رجال الموقع وبركات يقول « نفسى فى اللحم ياافندم » . بالتأكيد هناك فرق !

٧- الساعة ١٢ وخمس دقائق :

رأينا رجال الصاعقة فى ملابسهم المدنية يصطادون سمكا من القناة . مصيلحى تنحنح : لا حرب ياأولاد . السمك فى القناة والعساكر تصطاد . قلت له : لا أفهم شيئا . . همس عبد المسيح : لقد رأيت بالأمس ليلا أجزاء من الكبارى المعدنية ، وسترات الفلين ، وزوارق المطاط . هل رجعوا فى كلامهم ؟ تجهمت الوجوه ، وتصلبت الأيدى على المدفع .

٨ - الساعة الواحدة والربع :

أدار مصيلحى مؤشر الراديو . سمعنا سعاد حسنى تغنى : « الدنيا ربيع والجو بديع » كانت أمطار خفيفة تسقط لدقائق . وشدات الميدان تثقل ظهورنا . ارتفع صوتها : « قفل لـى على كل المواضيع » . قال صبرى : هذا هو المطلوب تماما . تعالوا نلعب . ملك أم كتابة ؟

كان الترقب ثقيلا وممضا . هناك فى السكون شىء لاندركه . التقط أنفاسى : انظروا خلفكم القوارب السوداء ينفخها رجال السرية الأولى . ومدافع الهاون محملة على ظهورهم . اعتقد أنها الحرب . مرّ المقدم صلاح على المواقع . تفحص المدافع . ربت على كتفى : شد حيلك يابطل تضاحك وعبد السميع : أوافق أن أقرضك مدفعا !

٩ - (الساعة الثانية و ٥ دقائق) :

أخترق الصمت أزيز طائرات منخفضة ، سقط قلبى بين أقدامى . قلت لنفسى لقد اكتشفوا كل شىء وبدأوا هجومهم . لكن سحابات الغبار ، وحرائق هائلة على الموقع المقابل بالضفة الشرقية مسحت فزعى . كانت طائرات « السوخوى » تغطس ويبتلعها الأفق ، والجحيم طاقات مفتوحة تقذف حممها ، إرتفعت أصوات الأطقم مجلجلة . بدأ سلاح المهندسين فى نصب معابر الدبابات العملاقة ، ودوى القصف لاينقطع . كل شىء بدأ كالحلم الجميل الذى لايخلو من خشونة - صوت عبد المسيح خافت يرتل ، وصبرى يقفز كالطفل مزهوا بالمفاجأة . تندت عيناى بالدموع . تسللت يدى إلى مصحف صغير قدمته إختى فريال لى ساعة العودة . صرخ فينا المقدم صلاح : استعدوا ستأتى طائراتهم للانتقام .

١٠ - الساعة الثالثة وست دقائق :

لم تظهر طائراتهم بعد : سرايا المشاة تتـدفق فى أعداد كبيرة . رجال الصاعقة حملتهم طائرة هليكوبتر نحو العمق . انفجرت بالقرب من مخازن الذخيرة دانة عمـلاقة . هتف الملازم عبد الغفار . سليمـة الحمد لله ! أكاد أنشق غيظا . كل الجنود من سريا الـ م . د والهاون والمـشاة عبروا . حتى رجال التعـيينات والشئون الإدارية وأفـراد المؤخرة . أنهم يضعـون أقدامهم الآن فـوق رمال سـيناء . عدلت البـيادة وشـددت الأربطة ، ولاحظت أن الرادار يمسح سماء المنطقة فى دورانه المستمر ، لكن أين طائراتهم ؟

بُم . . بُم . . قـذائف هائلة ، والفانتـوم تبـدو كنقطة فى الفضـاء البعيد . لم تكن مدافـعنا مؤثرة فـى الضرب عـلى الهدف . صوب رجال « سام » قـذائفهم الصاروخـية ، وما هى إلا لحظات حـتى تحولت الطائرة كسـهم نارى له ذيل كثـيف من الدخان . ارتطم الجـسم بالأرض ، ورأينا قائد الطائرة ومـساعده يـهبطان بالمظلة . اندفع مصـيلحى تجاهـهـما . زعق المقدم صلاح أن يرجع : ليست هـذه مهمتك . رد فى توتر : أريد أن أرى جنديا منهم ، سيكون لى حساب معه !

١١ - الساعة الرابعة:

كـانت الأسـراب تتوالى ، وبـدأنا الاشتـباك مع طـائراتهـم فى كل طلعـة . . أفلح الطاقم فى إسـقاط طائرتين وإصـابة أربع طائرات إصـابات مؤثرة . ووسط لحظات الزهو ، أحسست بماسـورة المدفع تتحول إلى قطعة من النار الموقدة . يشير لنا رجال المدافعية وهم يتقدمون لاحتلال التباب فى الجهة الأخرى بأصابعهم إشارة النصر .

عاد مصيلحى بأسير وقد عصب عـينيه وقيد يديه بحبل غليظ . دفعه أمامـه سألناه : أيـن الآخر ؟ قال بفـرحة طفـل يلهو بلعـبة أخـذه رجال المخابرات منى قسرا وصـممت أن نحتفظ بهذا الأسيـر إنه لايعرف العربية. ركله فى غل : لماذا أتيت إذن ؟

أتى المقـدم صـلاح ، وراح يحدث الأسـيـر بالانجليـزية ، ثم كلف الرقيب حكمدار الشئون الإدارية بتسلميه لقيادة اللواء . ضـحك مصيلحى ليس قبل أن نسوى الحساب الذى بيننا .

قال المقدم صلاح بصرامة : إتركه يامصيلحى :

تركه بعد أن أشبعه نكاتا . تشممه وقال : أتستخدم صابون فنيك فى الاستحمام يارجل ؟

١٢ - الساعة الخامسة :

نجـحـوا فى تثبـيت العلم أعلـى السـاتر التـرابى البليـد ، رفـعـوا الكلاشنكوف ورقصـوا طربا كانت ملامـحهم غير ظاهرة ، لكن سـمرتهم النيلية تخطف القلب .

ستبكى أمى كثيرا هذه الليلة. تصـعد إلى السطوح ، تضع فتات الخبز للدجـاج فى انكسـار ، ثم تركن خـدها أعلى يدها المعـروفـة . تنظر إلى السمـاء ساهمـة شاردة . ستـهبط الدرج دامعـة ، ترتدى جلبابهـا الأسود الفضفاض وتحبك مـلاءتها الحـريرية بلونها الرصـاصى الحـائل ، وتنزل « البيـشة » الرقـيقـة على وجهـها . تذهب إلى فـريال قلبى على الولد . أديرى مؤشر الراديو . ماذا تقول البلاغات ؟

طرقات لحـوحة على البـاب ، يدخل زوج أختى ، يهش لرؤيتـها ،

يخفف عنهـا ، تشهق قلقـة : « هل عندكم صورة لفتـحى ؟ تبلل الاطار الخشبى المزخرف بدموعها .

١٣ - الساعة ٦ مساء :

بدأت العتـمة تزحف فى بطء هجـوم الميراج مع آخر ضـوء ، نترقب طلعاتهم وأفـواج لاتنقطع من المشاة والسـرايا المساعـدة ، وارتال المدرعات بدأت تتجه إلى الممرات الموحلة . الكل يتـحرك فى زهو مشوب بالوجل . أصوات الانفـجار لاتنقطع . أستطيع الآن تميـيز قذائف المدافع المخـتلفة . أنتابنى هاجس غريب وأنا أحكـم الخوذة على رأسى ، وأشد الرباط الجلدى أسـفل فكى . مـاذا لو أن قنبلة من تلك التى تسـقط فى الأمـام أو الخلف تطيح بالموقع . الموقع الذى صرت أحفظ أدق تفـصيلاته ، تسلل إلى ذهنى عم عويضة بساقـه الخشبى ، وجلسته أسفل السلم ، وحـوله كلابه الأليفة تتمـسح فى ثيابه ، وتبحث فى السـاحة عن قطط الحى لتبدأ نوبة الخـربشة والعراك بدربة معـتادة . جذبنى صغيـرا إلى مقعده الخشبى بعـروقه البارزة والتى كنا نجمع منها الصمغ ونصنع للعصافير فخاخا .

تخللت أصابعه الخشنة شعرى ، مـعى صديق وعرفة ومتولى . خلع سـاقه وأسندها إلى المقـعد ، قـال : « طارت ساقى فى حـرب ٤٨ » . . حاربت مع الضـبع الأسود . بثثنا فى قلوبهم الرعب . كانوا يفـرون أمامنا كالخراف المذعورة .وفجأة أتوا لنا بالـذخائر التى اعتلاها الصدأ . لا أعرف كيف حاصرونا فى الفالوجـا ؟ نحن شجعان بالفطرة ، لكن تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن ! ».

أى رياح ياعمى عـويضة . الآن يأخـذ رفاق السلاح بثـأرك القديم . أتحسس ساقى بين الدهشة والفزع !

١٤ - الساعة السابعة والربع :

منذ نصف ساعة أفطر الصائمون بعد موعدهم . كانت الحرب تشغلهم ،وفجأة انتبه بركات للأمر . إرتج الموقع بقذيفة الألف رطل . أنزلقت يسار التبة ولم تنفجر . كبَّر صبرى الطحان فصلينا خلف الملازم عبد الغفار . كان للشمس الغاربة سحر لم نألفه من قبل . بكى العريف توفيق حين داهمه خاطر مفاجىء بأنه سيموت . أخرج من جيب سترته صورة « مرفت » قبل الطفلة بضفيرتيها والصق شفتيه بالورق المصقول . التف حوله أفراد الطاقم .

لم يهدأ ، بل انخرط فى نحيب مؤثر صرخ فيه صبرى الطحان ، وكان أصغرنا : عيب . أنت رجل . ثم أن شيئا لم يحدث .

لم يعد للضوء أى أثر بعد أن انسحبت كل الحزم اللامعة . غادرتنا الشمس تاركة ظلالا مالبثت أن استطالت ثم تلاشت . سمعنا أزيز طائرة لم نرها . أعملنا مدافعنا دون توقف ناحية الصوت . سمعنا صوت أرتطام المقذوفات بالجسم المعدنى الصلب ثم أندلعت خلفنا النيران . انفجرت الميراج ، أخبرنا بذلك فرد الاستطلاع بفصيلة مدافع « الهاوتزر » . رقص العريف توفيق : صلاة النبى ، صلاة الزين .

١٥ - الثامنة :

ظلمه ووميض . جاءوا لنا بمعلبات الشراب المثلجة ، فتحناها بطرف السونكى ، ارتشفنا فى تلذذ عصير المانجو . لم نأبه بقطرات تسقط على السترات . كان راديو الترانزستور يذيع مارشات عسكرية .

١٦ - التاسعة وعشر دقائق :

جاءت إشارة عاجلة من قيادة اللواء بعبور القناة على الفور ، والتمركز خلف النقطة الحصينة التى لم تسقط بعد ، حملنا عربة « الزل » بصناديق الذخيرة ، ومدافع الـ م . ط ، والمخل ، وجراكن المياه ، ومكعبات التعيين ، كدنا نترك صبرى الطحان فى المؤخرة ومعه بعض الجنود الجدد ، صرخ فينا وقد ترك بطنه الموجعة : سأتى معكم .

استفسر الملازم عبد الغفار : الست مريضا ؟ أسترح وستلحق بنا فيما بعد : ضرب قدمه فى الأرض وصوت الطلقات والانفجارات تتوالى : شفيت ولن أترككم إلا بالموت . ضحكت : ياليت !!

١٧ - العاشرة وسبع عشرة دقيقة :

نركب عربة (الزل) . فتهتز أسفلنا مكعبات الصاج المجوفة الطافية على مياه القناة . نحافظ على تماسكنا بصعوبة بالغة . نتأرجح وشىء فى صدورنا يتقافز كالطائر المحبوس الذى فر من قفصه بغتة .

بالأمس قابلت عطيات . قالت أنها غاضبة منى ، فلم أعد أهتم بإرسال خطابات . قلت لها : المشاريع تستنزف قوانا ، ننام بعد كل تدريب كسمك السردين . ضحكت : ألا تنسى أنك ساحلى أبدا ؟

أمسكت يدها ، ضربتنى برفق : حاسب اقلت لها : الاجازة تنتهى اليوم . غدا أعود للكتيبة . قالت : هانت . أشعر أن غيبتك لن تطول . لقد سرحوا أخى منذ شهرين . يبدو أنكم لن تحاربوا . أخى شحاته يخمن ذلك . لكنهم أرسلوا فى استدعائه بالأمس . أمر محير . نظرت فى عينيها فأخذتنى إلى محطات بعيدة ، وقرنفلات تحوم فوقها طيور رقيقة .

١٨ - الحادية عشرة مساء :

قرأت الأهرام بالأمس . وقعت عينى مصادفة على إعلان شقة تمليك ، ومقدمها عشرون ألفا من الجنيهات . كنت أرتدى أفرولى الكاكى ، وبيادتى . أتزاحم مع الركاب لأظفر بمقعد . الدرجة الثالثة . والباعة يتصايحون بالأمشاط ، المجلات القديمة والترمس المملح وفطير العجوة ، نظرت حولى للوجوه الممصوصة. أمامى عجوز يغفو ثم يصحو . قلت له : أتريد شقة ؟ قال بصوته المرتعش : آه ! . . قلت بصوت أعلى : معك عشرون ألفا من الجنيهات ؟

هز العجوز يديه المعروقتين : يفرجها الكريم . ضحك ونام . بقيت محلقا فى الظلام وأشباح أشجار تمرق من نافذة القطار . هزنى مصيلحى : أهبط . أحمل معى هذا المدفع .

١٩ - الثانية عشر مساء :

بدأنا العمل لتجهيزه الموقع .ألواح الصاج تبطن الحفرة الرئيسية ، تصبب العرق ، وأجسادنا كلت : « الهمة يارجال » . المقدم صلاح يعمل بيده معناه . أخبرنا جندى من سرية المشاة الثانية أن النقطة الحصينة لم تستسلم بعد ، وأن المعارك غالبا ما ستكون بالسلاح الأبيض . كان متعجلا ، كأنه فى سباق محموم . انطلق إلى مفارز اللواء الأمامية محاذرا حقل الألغام . بعد دقائق سمعنا انفجارا عنيفا . جرى عبد المنعم ناحية الضوء الذى التمع ثم تبدد . عاد شاحب الوجه . بحسرة قال : العسكرى حياتكم الباقية !

٢٠ - الواحدة صباحا :

غفوت للحظة . كنا قد انتهينا من إعداد الموقع ، وتحلقنا مدافعنا . وزرع الرقيب عطوة نوبات الخدمة الليلية . أقسمت حين أعود أن أذهب

إلى بيتها فى حارة « النفيس » أكلم أباها . هل يتهرب منى لأننى مجند ؟ هل أخبره بتلك اللحظات التى تتوحد خلالها الذات بالوطن والأرض ؟ أخرجت منديلها الأبيض المطرز بخيوط لامعة بالحروف الأولى من إسمى . تشممت العطر . آه ياعطيات . فى قلبى يمتزج حبك بكبرياء الوطن .

٢١ - الثانية صباحا :

خفت حدة الاشتباكات ، الأنفاس محبوسة ، ولا نوم . مجنزرات معطوبة حولنا زحف عبد المسيح ناحية احداها . عاد بسلك رفيع من الذهب وبطاقة حروفها عبرية ، وخصلة شعر صفراء : لاتندهشوا ، إنه رجل . هل يعرف أحدكم قراءة إسمه . مد يده اليمنى بالبطاقة .

رأيناه يخفى باليسرى شيئا خلف ظهره خوذة زيتية اللون ملساء متصلة باللاسلكى ، يبدو أنها لقائد الرتل . صرخ فينا : لن أعطيها أحدكم . سأضعها فى حجرة الصالون بالبدرشين . ياعالم يافقر . هاهم اليهود كرماء. غرقنا فى ضحك متقطع . ثم سقطت قذيفة مضيئة فوق الموقع تماما . التصقنا بالحفر ، ولم ننبس !

٢٢ - الثالثة صباحا :

الرقيب عطوة يريد كوبا من الشاى ، ونحن نريد ، لكن كيف نشعل نارا ؟ إن فعلت فأنت تكشف الموقع وتعرضه للاصابة . راح عبد النعيم يحك جبهته ، ثم قفز فى عتمة الموقع : وجدتها . صحت فيه : ماهى يا إرشميدس ؟ قال وهو يستفزنى : لا يأتى بها إلا رجالها . أسمع ياسيدى . علبة العصير الصاج الفارغة ، وبعض زيت المدفع ، مع فتيل من قطن .

صاح بركات : والضوء يامغفل . قال ببساطته المعهودة : سنصنع من ألواح الصاج هرما . عيب يا أحفاد الفراعنة . بعد ربع ساعة تناولنا شايا ساخنا ودشنا عبد النعيم كبيرا لعلماء سرية الـ م . ط !

٢٣ - الرابعة صباحا :

عادت القذائف تشق الفضاء . وهج وارتطام . رائحة البارود واللحم المحترق . دبيب الجنود المصريين حولنا . صيحات متقاطعة « أثبت محلك » كلمة سر الليل » « قف .. تقدم » « حاضر » .. ! يا « أومباشى توفيق تمام المدافع » .. « احتياطى التعيين » .. « سطع اللواء » « أفندم » .. الجراكن ثقيلة » .. يخرب بيتك يابعيد كتفى انخلع .. « رجلى انغرست فى الرمل .. الذخيرة حملها أوقف نموى » .

مصريون من حولك تفرح بهم ومعهم ولهم . مصريون سُمر الملامح . كلهم أحبه صحبة ورفقة سلاح ، وزملاء حفرة . قال مصيلحى : هيا نتعاقد جمعا على أن نحمل فوق أكتافنا عبء الصغار . تساءلت : صغار من يامجنون ؟ قالوا معه فى صوت واحد : من يستشهد !

٢٤ - الخامسة والنصف صباحا :

الفجر يولد . فجر ناصع البياض . طاهر نظيف . الخيط الأول الذى يعرفه رجال الـ م . ط جيدا . أشباح الظلمة بدأت تتضح معالمها . خلفنا مسطحات زرقاء بحيرة التمساح ، والمئذنة التى يقع أمامها الكوبرى المعدنى الذى عبرنا فوقه .

الفجر يولد ومدفعيتنا الثقيلة تقصف بعنف. أتشمم المكان وأشمله ببصرى فرحا نزقا بالعودة . أنحنى وأحضن بيدى الرمل الأصفر كتبر لم ألمسه من قبل . حجر الفلاسفة هو مدفعى يارفاق .

منديلها فى جيبى . أضع فيه حفنة وأصره كنزا لايقدر بمال . جميلة عيناها رقيقة كالحلم لماذا تبتسمين الآن . ألست غاضبة ؟ . . فتحى . وجدته أمامى مبتسما : لماذا أنت شارد ؟

وقفت إنتباه :أبدا يا أفندم ، كنت أفكر فى أحوال الدنيا . وضع يده على كتفى وارتعش صوته بنبرة متفائلة : أشعر أننا سنحارب اليوم أفضل أمستعد أنت ؟

قلت بيقين : بالطبع ياسيادة المقدم صلاح . ضحك ، ثم قطب جبينه : أنت كثير القراءة مثل عاطف ابنى . إنه فى الثانوية هذا العام . اعتقد أنك لم تره ؟

ارتبكت :لايا أفندم . لم أره . نبرة خافتة : هو يشبهك . لكن ليس له مثل هذا الشارب .ضغط على كتفى فجأة : هل تخاف ؟ قلت : بصراحة : أخاف . . لكننى سعيد لأن الحرب بدأت . المسألة لاتهمنى وحدى .

كنت بالفعل احتوى المكان . . أشعر أن روحى محلقة خفيفة تعلو فوق كل التفصيلات .

فى تلك اللحظة أشار لى بيده : أنظر إلى الخلف . كان علما جديدا يرفرف بتألق مرتفعا أعلى النقطة الحصينة ، وكانت صفوف الأسرى على البعد تتقدم رافعة الأيدى . الجنود يهللون والفجر تفتح بالضياء أكثر . أعرف أن أمى باتت مسهدة . وأن عطيات تتأمل صورتى الآن . وفريال ستحدث الأطفال عند استيقاظهم عنى . عم عويضة. وحده الذى سيندفع نحوى صارخا : « سلامات . . ياضبع يا أسود ! » .

الكـــــودى ٢٨

(أ) هى الأبجدية : أحرف وعبرة

نحن نقص عليك حكاية التعب والحرب

أكتوبر : البداية طلقة ، والنهاية حفرة وخوذة !

أول طلقة فتحت ثقبا رماديا فى جدار الذاكرة . استحضرت ليالى الأرق ونهارات الانتظار . أطلقت زفرة وعصافير حبستها فى أقفاص الزمن . أتعبتنى ياقلب ينبض بالمستحيل . انتبهت على وميض الطلقة الأولى . أوقعتنى الهزة العنيفة فى حفرة المواصلات . أول الكلمات رمادية اللون والطالع . اقرأ ألفية ابن مالك . أقبض باليدين على جمر الحقيقة إنفض يدك من الأبجدية الملونة . أوطن نقصت خرائطه بوصات وتجمد الدم فى أوصاله ؟ أهذا وطنك يافتى ؟ أزهر المدائن والمآذن والعيش الحاف . أرأيت كيف يقتل الجوع أرق المشاعر ؟ أصبعك الصغير يخترق جوربك ويطل من حذائك الممزق . أنت تقود المظاهرة ومن خلفك العمائم ، الحناجر تعلو بالهتافات المبحوحة . . أتوابك إلى المكتب البيضاوى ، وتحسست بأصابعك قشرة الماهوجنى الملساء : أعترف .

ابن مالك ينظر من نافذة السجن ، وتظلل وجهه القضبان الحديدية . أيده التى تمتد بالخبز الخشن تمنحك السكينة أم الندم ؟ أيها الرب لاتدخلنى تجربة لا أحتملها . ابن مالك يتحسس الجدران والأقبية المعتمة . أضرير هو أم أنينه المعذب لايبصر قيدك المعدنى ؟

أمك فى الليل الكحل أنحنت بجذعها على ماكينة الخياطة ، أخذت تلضم الأبرة ، وتمر بيدها على العجلة فيدور السير . أنت بكريها والملاذ .

الأب داسته السيـارة المسرعة وسقط حقه فى التعـويض . أول طلقة فجرت فى عقلك المكدود كل الحوادث الأليمة .

(ب) بلغنى أيها المـلك السعيـد ، ذو الرأى السديد أن الفرنجـة عندما حطموا السلسلـة ، وكسروا البرج ، وانزلـوا سفائنهم فى بحـر النيل ، فر الأمير فخر الدين تاركا الديار والعيال ، وسقطت دمياط بعد طول حصار . بعد أن عـز الزاد تـهاوت حصـونها . وأنك اغتـممت وأصابك الخـبر فى مقـتل . وأن شجـرة الدر قد أخـفت مرضك وأخـرجت رسائلك ممـهورة بالأمضاء والخاتم السلطانى . حتى أتى من الشام ولى العهد ، وانك دفنت فى الليل الغطيس بلا جنازة أو موكب أو دموع .

بلغنى يا أصحاب ، يارفاق الخندق ، أن اليهـود حين اجتاحوا الرمال المقدسـة ، جاءوا إلى شط القنال ، دلدلوا أرجلهم ، واصـطادوا سمكا . جاءت المجندات الشقراوات يستحممن فى الأزرق اللازوردى . وأن عويس قد طق مـات من الحسـرة ، وغيـره أصابه الخـبل ، وأن عسكرى مـصرى مجهول الاسم والموطن قد فرغ ذخيرة مدفعه تجاه جموعهم المستحمة . ولم يفعلوها ثانية .

باتت شوارعنا مسـهدة ، الإضاءة مقيدة ، وصـفارات الإنذار تصرخ كلما أتت الفـانتوم مغير ة، بلـل قميصى عرق غـزير . لم أكن قد دخلت الخدمـة بعد . بطاقتى الشخـصية لم يمر عليـها سوى أشهـر قلائل . بؤبؤ العين إنطفأ وصوته المتهدج يعلن الفجـيعة . بالروح بالدم . . بينما جسدى الضئيل يصنع نقطة لا محسوسة فى بحر البشر الهائل . بدايتى ليست كأى بداية . بدايتى حزن لاينتـهى .برج المراقبة كـان قد قصف وتأرجح جـسد العسكرى بالزى الكاكى المموه .

(ت) تغيرت أمى كثيرا ، تعب قلبها الصغير ولم تعد بقادرة على مواصلة العمل حتى خيوط الفجر الأولى كما تعودت . تزايد شكواها من ألم المفاصل تغيرت أنا الآخر . تأهبت مساء الخميس للسفر إلى رأس البر . طويت بنطلونى بعناية وضعته تحت المرتبة ، تقلبت ، فى الصباح غيرت رأيى تاهت أفراحى الصغيرة تقلب الأولاد على فراشهم . تشابكت الأيدى والأقدام . تاوه شكرى سعل فى الليل . جاءت أمى ، ملأت غطاء الزجاجة بالدواء . قربته من فمه : بالشفاء إن شاء الله .

تحطمت العظام ودبابة الباتون العملاقة تدهس الموقع ، وأحذيتهم المطاطية تنغرس فى الرمل الساخن ولا رحمة . قال الصول جنيدى : كانوا قتلة .

تحسرت على الشباب الذى راح فى غمضة عين . تمتمت فى سرى : سلف ودين . تألمت وأنين معذب يجتاح قلبى . وصوت الفرملة يصطك وتنقلب العربة . أكواز الذرة تتناثر . قطع الفحم السوداء . جلباب أبى الأبيض وجاكتته البنية ، خيط دماء على الصدغ الأيمن . تركنا وذهب . ما عاد . تركنا وتنحى . عاد والشيب يزحف فى ضراوة ليملأ القلب قبل الرأس !

(ث) ثرى هذا الرجل . بعد أن مات أبى صمم على شراء البيت . قالت أمى : نحن فى حاجة إلى كل مليم ليتعلم أخوتك ، قلت بمرارة : إن بعنا البيت تشتتنا . وافقتنى أمى . مسح بأصابعه شاربه الكث هز رأسه : أنتم فى العين من جوه .ثعلب بدهائه ، بنظراته التى تبحث فى وجه أمى عن بقية شباب ، وجمال أفل . صرخت فى وجهه : لن نبيع البيت . ارتعبت عواطف ويكى شكرى قالت أمى : أرجوك . اتركنا فى حالنا الولد عصبى . يعمل فى نفسه حاجة .

ثرى الوطن لايباع . والبيت . الخريطة لا تزحزح فيها علامة أو نقطة أو خط . ثمرات حلو مذاقهـا . من حديقة الحاج مختـار . أرسل أقفاصا من كل شكل ولون . تركـتها أمى دون أن تمسـسهـا . قال شكرى :أذق المانجو . جاء بـعصاه يضرب السلم . اصطنع المرح : كـيف حالك يارجل البيت ؟ ثعـلب أريـد سلخ فـرائه . يمكر ويـحاور . عـيـنه على البـيت والست . قالت أمـى : بدون زعل ، لا نريد هدايا . البيع والشـراء يفتح الله . اغرورقت عيناى بالدموع . جلسنا نأكل العيش والمش سعداء .

(ج) جمعنا الرائد يسـرى فى خيمة القيادة بفـايد . أخبرنا أن تدريب ضرب النار صباحا السادسة . كانت الشـخوص متحركة والضرب بالذخيرة الحيـة . جلسنا القرفصـاء فى انتظار دورنا . الشدة على ظهـورنا كاملة . والسلاح على هـيئة تقـاطع . جاءت الأوامر بالـتحرك وجـذب الأجزاء . ارتفع العلم الأحمر فأمطرنا الشخوص بالطلقات . لم تكن رمايتى مؤثرة . استـدعانى للجـنه الليلى . حـدثنى : لم أتعود منك أن تكون الأخـير فى الرماية ! ما مشكلتك ؟ جلس وبقيت واقفا جمعت شتات أفكارى : جلسة المحكمـة بعد أسبـوعين . إنذار بالهـدم . الحاج مخـتار رفع علـينا دعوى عاجلة بعـد أن أشترى نصيب أعـمامى. جاعت القطة فأكلت صـغارها . انصرفت .جلسة المحكمـة لن أحضرها . اختمـر فى ذهنى عمل ما . فى المقهى جذبته من ياقة معطفه . أمـسكت بكوب الشاى الساخن . قذفته فى وجهه صـرخ : مجنون . جسمى ينتـفض كله : أنا هناك أحارب . وأنت هنا تخطف بيتى . إياك أن تهدمـه إياك . تدخل أولاد الحلال : لن أهدمه . اتركنى . أنا راجل كثير الأمراض .

جلس الأسرى القرفصاء وقنابل الألف رطل تطحن أعمدة الحديد بكتل الأسمنت بالأجساد . وأنت تسرق بيتى ياحاج مختار . جلس ممتقع الوجه : حد الله بينى وبينك ياشيخ !

(ح) حسدتنى أم صالح لما جاء ابنها بشهادته وكلها كعك » ودوائر حمراء خبطت سقاطة الباب ، جذبنا الحبل فدخلت قالت : ألا تذاكران معا ؟ كيف يرسب وتطلع - أنت - الأول ؟ الخائب الذى لن ينفع كأبيه قالت أمى : صلى على النبى .

زمت شفتيها ، تركت الشاى وغمغمت : حاجة تفلق . حسدتنى ولم يقبل المساء إلا وعظمى يوجعنى . ورأسى كأن شوا كيشا تدق فيها . قامت أمى ترقينى . تأتى بالشبة والفاسوخ ، وز العفريت . المنقدفيه الملح يطقطق . على رقعة صاج : « إلهى يشفيك .من كل داء فيك ويخزق عين اللى شفتك . . وما صليتش ع النبى » . . . .

تخرم العروسة الورق بالإبرة وتلقيها محترقة . حلم زارنى وأنا اتقلب على الصاج المتعرج فى موقع السرية الثانية مشاة . رأيت أمى تمسك عروسة ورقية كبيرة ، تثقبها بالإبرة ومن كل ثقب يتدفق الدم . وضعت العروسة على منقد من رمل . وزر العفريت نجمة زرقاء تطقطق . عروسة تتحول إلى فتاة من لحم ودم . صرخت فقمت من نومى فزعا . مواسير الـ م . ط مصوبة تجاه الشرق فى يقظة . تنهدت فى ارتياح !

(خ) خجل اعترانى ويدى تسوى شعرها الفاحم السواد . يطيره الهواء هبطنا الدرجات الصخرية أمسكت بيديها . أجلستها أمامى . العجوز دفع المركب برفق . حركت المجدافين بانتظام . كانت السحب داكنة . راحت تحكم الإيشارب الكحلى حول عنقها العاجى . قالت تستفزنى : رأسك

حليق كالمساجين ، لكنه جميل . قلت : حين سجنت . كان شعرى يصل للكتفين . تصورى . شدونى منه . قال المخبر : بقى أنتوا عايزين تحاربوا ؟ أخذ من يدى العلم مزقه : بله ، واشرب ماءه . خفيف هو الرذاذ الذى راح يسقط فجأة . طوقت بالايشارب شعرها . قالت : لماذا شرودك ؟

قلت : غنى لى أغنية قديمة . قالت : « الميه تروى العطشان » . رحت أضحك كعبد الوهاب بوقار مصطنع : اتضحك بالفصحى ؟ خلفى كان مقام سيدى الصياد ، ونخلة وحيدة : سأقبلك ! رفعت سبابتها فحاذت شفتيها : هس . النخل يزعل .

خلف خطوط العدو فجرنا عبواتنا الناسفة . تعاملت معنا مدفعية ١٥٥ مم . أصيب الملازم طارق فى بطنه إصابة بالغة صممنا على إخلائه . أزرق وجهه . عدنا فى قارب مطاط والليل يلفنا .

(د) دلونى على السبيل . عطشان ياصبايا . كأرض تشققت من الظمأ . والماء ينساب سلسبيلا عذبا . طيور النورس ترف على شط القناة فى حذر تجاه الموقع . طيور بيضاء عندما تطير مبتعدة تبدو كنقطة صغيرة تذوب فى الأفق . قالت مرفت : لماذا تتفاءل بالنوارس ؟ قلت متأملا وجهها محدقا فى زهور اللوتس فى ثوبها : دائما ما شاركتنى فرحى !

دفنت وجهى فى شعرها . جفلت فى البداية ثم استسلمت . أحست بدموعى : لماذا تبكى ؟ كان صوتى متهدجا : فى سبتمبر شىء حزين ، كنصل سكين ، يشق قلبى نصفين .

وضعت وجهى بين راحتيها : البكاء لايليق بمحارب ! النوارس تحلق ، مقام الصياد ونخلة وحيدة . يدبدب الصيادون بأقدامهم المشققة . الظمأ يكاد يقتلنى . دلونى على السبيل .

مواويل أسيانة وطائر نورس حط على مقدمة المركب ثم طار مبتعداً !!

(ذ) ذبحنى الانتظار . هذا دمى ينسكب فوق الخوذات وشباك التمويه ، ومدافع الهاون وأرانيك العيادة ، وأوانى التعيين . سبتمبر جديد يأتى ، وأنا لقابعون ، وفى حفر السرية لمتظرون .. الموت أو الشهادة . ابتسمت لزناتى ، وهو ابتسم فبانت أسنانه بغطاء البلاتين : الموت أو الموت ! ذهب الذين أحبهم . ذهب مصيلحى إلى بعثة فى كندا ولم يعد . أرسل خطابا من هناك . فضضت المظروف : كان يضع يديه فى يدها . بنت كزهرة برية ، لها نصاعة الجليد . قال أنها زوجته .ذهب الذين أحبهم . فى إجازته السنوية أخبرنى عبد العليم أنه سيتعاقد لعام جديد كى يتمكن من إحضار السيارة ، والفيديو وأطقم الصينى والمفروشات . الموت أو الصمت . ذهب الذين أحبهم . فى سرية المدفعية أخبرنى العباسى أن صالح سعد قد احترف فى نادى الخليج للكرة . وأنه قد حصل على جنسية القطر . وبقيت مثل السيف فردا ..

(ر) رجفة فى القلب ، وزلزال فى عقلى . قالت أنها حزينة . قلت لعله سبتمبر . حزن شفيف وسمان نجيب محفوظ الحائر . قالت أنها لا تعرف كيف تبدأ ؟ قلت وأنا أتحسس الفجيعة : لتبدئى من النهاية . اسقطى كل التفاصيل الصغيرة .

فى كتب التاريخ لايذكرون أسماء الشهداء ولابكاء صغارهم ولا صريخ نسوتهم يذكرون فقط نتيجة الموقعة . نصر أم هزيمة ؟

راوغتنى المدن التى عشقتها بورسعيد الصامتة والساحل المهجور . دمياط المتربة وحواريها التى لعبت فى طرقاتها صغيرا . الاسكندرية حيث ترام الرمل ، ويدى تعبث فى حقيبة مرفت ، لتخرج قطع الشيكولاته . مدن أوجعت قلبى بالصمت والمراوغة . رجفة فى القلب وزلزال فى مقلتى : لم أعد لك ! رخام بارد قطعته من محاجر نائية أيدى العمال الصلبة . هو قلبى . تساءلت : ستتزوجين ؟ هزت رأسها : نعم . قلت : مبروك مشت ولم تلتفت خلفها . اكتشفت أننى لم أبك . لم أمرغ وجهى فى عشب الشاطىء . فقط أشهدت النوارس أن النهاية لا تليق بمحارب لم يخض معركته بعد !

(ز) زارنى وجه أبى فى المنام . سألنى عن أمى والأولاد . خيط الدموع انساب على وجنتى . امتدت يده تمسح شقائى . عبث بأصابعه الخشنة فى شعر رأسى الحليق . مثلما كان يفعل . سألنى ! أخبرته أننا لم نبع البيت . وأن الحاج مختار ابتعد عن طريقنا . وأن شكرى قد دخل المدرسة منذ أربع سنوات . عواطف حصلت على دبلوم التجارة وتعمل فى مكتب محاسب وقور بعد الظهر .

سألنى : كيف حال أمك ؟ قلت : ضعف بصرها وعمودها الفقرى صار يوجعها .

أخفيت عنه كل التفاصيل التى يمكن أن تؤلمه . لم أحدثه عن كسوة الشتاء التى لم تعد تأتى !

وضع فى يدى قطعة حجر ، وذاب فى الفضاء على حين بغتة . حاولت فك طلاسم الحجر لم أستطع كان نقشا فرعونيا غائرا . هتف فى منامى : يا أبتاه فسر لى تلك النقوش . وسأكون إن شاء الله من الصابرين . ذهب وفى القلب حيرة . والأفق حين صحوت رصاصى الأنفاس .

(س) ساعدينى ياست ياطهرة ، وأنا أمـام مقامك منكسر النفس ، ألعق جراحى ساعـدينى وخففى عنى حزنى . خـرجت من المقام وأنفاسى مكتومة بالبخور الجاوى ورائحة العرق . جذبنى زناتى من يدى : لم أعرف عنك ذلك الانجذاب للأوليـاء ! قلت ورأسى تدور : كل الطرق سدت فى وجهى أين الملاذ ؟

قـال زناتى ، وأنا أتساند على كـتـفه : فى البـصارطة قـريتى .يدق النسوة مسامـيرهن فى جذع شجرة جميز ضـخمة . تلف كل منهم خصلة من شعرها ، حتى ينبثق الدم مـن المنابت . هن يعتقدن أن الأرواح الشريرة تذهب إلى غير رجعة . الأسياد ينصرفون ! .

قلت وأنا شبـه غائب عن الوعى : رأيت ذلك . قـال وهو يهزنى : لكنهن يدفعن الدماء إلى الرأس بتلك الحيلة . فى الأول من أكتوبر لوح لى زناتى وهو يعـدو ليخفى سلـك المواصلات فى باطن المدق الجيرى .هتف بصوت مبحوح من أثر زكام : تذكر شجرة الجميز . نحتاج لمسمارين .

(ش) شملنى الرائد يـسرى بنظرة فاحـصة نظر فى ساعـته : أأنت جاهز يابطل ؟

قلت وأنا أؤدى التـحـية العـسكرية : تمام ياأفندم . قال وهو يـخفى قلقـه : سنعبـر بعد نصف سـاعة وسـتكون فى المقدمـة . سندفع بك إلى النقطة الحصـينة قبل طلعة السوخـوى الأولى . المهام محددة . مـعك فرد للآر. بى. جى وآخر للرشاش الخفـيف . عليكم صنع ساتر الدخان وقت عبور زورق المطاط . أمستعد ؟

لم أملك نفسى من اندفاعى فرحا إحتضنته . رحت أقبله وهو مستسلم تماما. كدت أحطم قفصه الصدرى . تذكرت فجأة ما لقنت من عسكرية . عدت كعمود خشب : سأنفذ الأوامر يا أفندم . استدرت عائدا إلى خندقى بخفة عصفور . شال الحمام ، حط الحمام . كانت أمى فى شبابها تلقط أفراخ الحمام الحب وهى تغنى . لماذا أتذكر تلك اللحظة البهيجة الآن ؟

أبى يقف بعربة الذرة أمام البيت ، ويحمل « المشنة » على كتفه وخطواته على السلم الخشبى تحفر فى قلبى عشقا أبديا . شال الحمام ، حط الحمام . ياجمال الدنيا فى تلك اللحظة شال الحمام ، حط الحمام ، سنحارب !

(ص) صفر . الساعة صفر. والسوخوى تمرق عائدة ، وأول زورق ينزل الماء زورقنا المهمة محددة . صعب هو الانتظار . ونحن ننحنى لنلقى بأجسادنا فى الزورق . شعرنا بأجسادنا خفيفة رغم ثقل المهمات المكدسة فوق ظهورنا .

كانت القذائف تدك الأرض هنا وهناك . صعب أن تحمل قلبك كل هذا الحزن دون أن تنفجر أشلاء إنسان . صعدنا الساتر الترابى والتصقنا بالأرض . ونحن نرى المواسير تتحرك فى المزاغل . كم هو قريب : الموت !

صائمون ، والغم علقم ، وعساكر الكتيبةكأسراب النمل يزحفون من خلفنا . رشاشات الفيكرز تحصد الرجال على الكبارى . يسقطون ، يمسكون أجزاءهم المصابة ، ويزحفون .

صعب على أن أستعيد كل شىء والعفرة تختلط بالبارود ، بكل مرارة

الأيام الخوالى ، بفساد النمم ! فى مدينتى الصغيرة . عفارم عليك ياحاج مختار . صرت ملكا لتجارة الخردة والخيش . تفتل شاربك واضعا الساق على الساق . تدخن وتشرب قهوتك مضبوطة . ونحن هنا نحارب . انكشف الرؤية ، واتضحت العبارة . صفر هى الساعة . وما أدراك كيف تبدو الساعة . فلا نامت أعين التجار !

(ض) ضيعتنى السنون ، وراحت تنثر أشلائى على طول الدلتا والوادى .ضاع حبى ، وخلته قادرا على الإفصاح عن عشق أبدى قديم . تسلل الشيب إلى قلبى . حدقت أمى فى وجهى آخر زيارة : أين ضحكتك القديمة ؟ انكمشت فى ركن الحجرة أمزق الخطابات بأوراقها الملونة : زهور ذابلة !

ضغطت الخوذة على رأسى ، واحكمت سير الجلد أسفل ذقنى ، انطلقت قذيفة الفهد وأطاحت بالمجنزرة . فى نفس اللحظة انهالت القذائف علينا . تدحرجنا بأجسادنا فى انحدار التبة الخلفى. تحسست بيدى الحشيش الأخضر الضارب إلى الصفرة . لامست خدى خنفسة سوداء راحت تخرفش فى صمت يمتد بين الطلقة والموت ضالع فى الكتمان . وللحرب سطوة . وعلى بعد مائة وخمسين كيلو مترا تطل من المشربية عيون أعرفها :

(ط) طلقة . طلقتان . طلقات نارية لاتنقطع تجاه الشرق . ودبابات الستوريون ، ومجنزرات معطوبة أفراد العدو فى نقطتهم الحصينة لايستسلمون . طلع البدر علينا ونحن نقاتل . صارت التبة ممتلئة بالرجال من كل سلاح . طوقنا النقطة واتجهنا للعمق . طلع البدر وطلعنا تبابا وهبطنا أودية وسقط رجال من الصعيد ويحرى أيدينا حفرت الرمال ومددت الأجساد وأهالت الرمال من جديد .

عصا التنشين وخـوذة مقلوبة . الفاتحة والأكف المتـربة المعروفة بالدبل الفضية والذهبـية تجاه وجه السماء الرمادى . بكى العـسكرى زميتى . كان يخـشى المـوت ورآه . انكفأ على أول حـفـرة وبللت دموعـه الغزيرة ياقـة السترة . ومع توالى الحفر قل بكاؤه . ثم أمـتنع تماما . طلقة . طلقتان . وشمس السابع من أكتوبر تشرق دافئة حنونة . والطاقم فقد بعض رجاله !

(ظ) ظللتـنا مواسير المدفـع . رأيتـه يتجـول بين المواقـع عـفيا كعادته . مبصرا بشوشا على غير عادته .

كانت عمته هدفا سهـلا لقناصة العدو . خفت عليه : أخفض رأسك يا أبا مالك .

لكنه حـمل الـفيتـه تحت إبطه واستـمـر فى تجواله ، يبـدو أنه لم يسمعنى . من بعيد أشار بيده لى : « إن للتوكيد . ليت للتمنى » إن اليوم يومى ياشـيخنا . على الفـور تذكرت جلسـتى بجوار النافـذة فى ابتدائـية الأزهر . ويـدى تقطف حـبات النبق من الفـرع القريب . وعـصا الشـيخ المعـمم . تشيـر لى . يرتج على القول : لم أحـفظ يامولانا . أمـد يدى والعصا هابطة صاعدة .

هى أيـام المرح والقلـب الخـالى والـضحك من غيـر سبب . عـمال على بطال .

ظللتـنـا العـفـرة وشـظيـة عـمـيـاء تشـق خـوذة زناتى وتغـوص فى الجمجمة . . آخر كلماته قبل الموت : لو كان لى عمر سأدق مسمارا وانزع خصلة . قد ينفك نحسى .

ظالمة هى الشظايا والموت جوال ودمك يازناتى فى عنقى . والبصارطة تفتقدك وفى الغد تضع اسمك على نصب تذكارى فى مدخل القرية . تأكله الشمس ويسقط بعد أن تنشف « البوية » ظالمة هى الشظايا . . والمنايا !

(ع) علم يرفرف وانساق تلو انساق تتقدم . بأى حال عدت يا أكتوبر . عارٌ علينا أن نأمر مدافعنا بالسكوت . وحدها القادرة على ترجمة مافى قلوبنا من معان .

قلت لكوثر ونحن على أعتاب الإعدادية : أين منزلك ؟ ردت بانكسار : فى بورفؤاد : حكت لى عن سقف القرميد وشجرة الفل ونافورة تتوسط الجنينة وقط سيامى وببغاء ملون وخرز يرصع حقيبة نسيتها على الحائط . حين ركبت المعدية . تجولت فى الشوارع الخالية إلا من ملاجىء الأفراد ومواقع المشاة وبطاريات الصواريخ . كان العنوان بورقة فى يدى .

قرأت اللافتات الصاج الزرقاء . هذا هو منزل كوثر . الباب مفتوح والجدار مهدم . قطعة أثاث وحيدة ومرآة مشروخة . بحثت عن حقيبة الخرز وجدتها بين الأنقاض قطعة من القماش المهترىء انفطر الخرز وطمرته الأتربة . علم ومقاتل وجها لوجه . بأى حال عدت يا أكتوبر ؟

(غ) غفوت قليلا . كان الأعياء قد هدنى . قمت على يده تهزنى. الدبابات . الثقيلة عبرت . فتحت عيناى على أرتال الدبابات تتقدم . غنيت فى سرى لحسن على اسماعيل والمارش العسكرى يتلبسنى : راجعين ! قلت لمرفت وأنا أقدم لها أول هدية : أسطوانة لموتسارت . هزت رأسها لا أعشق الموسيقى الأجنبية لا أفهمها . يدى ربتت على كتفها مشجعا : ستتعودين ذلك . وضعت الأسطوانة فى حقيبتها الخوص وبرزت صورته على الغلاف . إنساب اللحن يعطر أجواء المكان . غرد طائر كنار

أصفر فى قفصه قالت : كم هو جميل ؟ بأسى قلت : ليتهم يفكون أسره ، ليغرد ألحانا شجية !

(ف) فزعت حين قصفت الطائرات المعبر القريب . تأرجحت المكعبات الصاج ، وانشقت فامتلات بالماء . طفت الأسماك ميتة على حافة الشاطىء . استنجد قائد كتيبة المهندسين بنا . دفع الرائد يسرى بأفراد المؤخرة . فاتنى أن أضع ساعته وأوراقه فى شدة الميدان . خاتم الفضة بفصه الياقوتى الفالصو ، ودبلة الزواج . قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أشار لى بيده أشارة فهمتها . فزعت لها . فارقنى بالجسد . العريف شطا . من غيط النصارى . احتسبت أنفاسه والدانة تخترقه . خلى بالك منهم فزعت للكلمات . خلى بالك . من الموت ذعرت . خلى .

« وياخلى ياللى أنت فايتنى

ريتك ماخذت القلب ولاجيتنى

ياملاكى ياللى خطف الروح

ليه القضا افتكر ، والدنيا نسيتنى »

(ق) « و . . قد ردت مدفعيتنا على النار بالمثل ، والحقت بهم خسائر جسيمة فى الأرواح والمعدات » . قل جاء الحق وزهق الباطل . قاهرة : كم أنت عظيمة ورائعة . غبار المقطم ، تماثيل مختار ، لوحات محمود سعيد ، مقامات محمد عثمان ، أدوار درويش . تمر الوكالات الأبريمى فى بولاق . شجار النسوة فى الزاوية الحمراء . ماء الحموم صبح كل جمعة . غلالة رقيقة فى المساء من ضوء ناحل على الشاطئ. صوت الشيخ رفعت المتدهج بالنور والتقوى . وقد ردت . قالت القاهرة . . للاعداء : أخرجوا

فأنتم إلى الأبد ملعونون . والحقت بهم . الخزى . . والعار ، قالت القاهرة : إنى باقية ، وأنتم مبددون !

(ك) كل شىء هالك . كل البشر فانون . بأسنانك عض إصبع خصمك . وإن عض فاصبر . هكذا قال فارس عربى قديم . لعله عنترة وحررت قواتنا ، القنطرة ، ورمانة ، والشط . توغلت فى عمق دفاعاتهم . كان وجه أمى يحتوينى . وروح زناتى تدفعنى أن انطلق . كيف حال شكرى . وهل يلصق الراديو الحجارة بأذنيه ؟ كيف أنت ياعواطف ؟ هل تسندين ذقنك الصغيرة على حافة السور ؟

هل تصعدين الآن سلم السطح لتتأملى السحب العابرة ؟ كل شىء انكشف . ماعدت أخشى الموت لكننى أعرف كيف يمكننى أن أخوض الحياة !

(ل) ليل الحرب وهج وشظايا . السابع من أكتوبر ليله ممتد . ليل كموج البحر أرخى سدوله . تعلقنا بأستاره . نبكى أوجاعنا القديمة . قلت لها أن المنام أرعبنى « رأس جمل تدخل فى ثقب إبرة » مدت يدها نحوى . دون أن تنبس ربتت على كتفى . البكاء لايليق بالمحارب .

أرتال الباتون وعامود اللاسلكى يهتز . أسراب الفانتوم تتقدم كغطاء جوى . ضربة عنيفة فى مفصل الجيشين . الالتفاف . والتطويق . التقدم والانسحاب . فبت كأن العاديات فرشن لى فراشا من شظايا وجمر . بت بلا نوم . مدت مسرفت يدها ، وفى إصبعها خاتم من ذهب ليس لى قالت : كل شىء قسمة ونصيب. هززت رأسى مؤمنا : انقشى اسمى على ماء النهر المقدس . نهر النيل . ليل ضارب جذوره فى قلوبنا الموجعة . تم تبليغ الاشارة العاجلة : « تم احتواء الهجوم وتدمير رأس الجسر . وأسر قائد القول الاسرائيلى » .

(م) من علمنى حرفا صرت له عبدا . من علم بلادى الصبر على المكتوب كل هذا الزمن ؟ من علم رجال الصعايدة - أعواد الزان - بناء المعابد بأعمدة تنتهى بتيجان عملاقة ؟

حين انطلق بنا قطار الجنوب ، ودخلنا فى رهبة إلى الرمسيوم ، وجدت نفسى تحت أقدام التمثال العملاق . كنت ضئيلا ضئيلا . أصغر من حجم الاصبع الصغير . الجرانيت الصلب المنحوت فى باطن الجبل . هم محاربوك انطلقوا ليطردوا « العامو » من أورايس . هم محاربوك سيدى توضأوا بالشمس وباركتهم أذرع أتون الحامية والحنونة . من علمك البكاء ياكوثر ؟

من يدفع ثمن هجرتك القاسية لتعيش أسرتك فى حجرة مدرستى الاعدادية ؟ . . من يعيد حقيبة الخرز ؟ بورفؤاد تطلق صواريخها ، والأسفلت معشوشب بالخضرة . وقط سيامى يختفى وراء الانقاض !

(ن) نختبىء فى ظلال ذكريات الأمس . ناعمة تلك الابجدية أم خشنة ؟ فى أذنى تصطك حروفا كقطيع أنغام بواد ليس ذى زرع . سألنى المحقق . وكوع المخبر تلكزنى : من لصق المنشورات على حائط الجامعة ؟ همس المحقق ، ويده تربت على كتفى بعد أن أشار لصاحب البالطو والصندل بالخروج . انتبه لدروسك . أرجوك . بأبوة لا تليق بسنه الصغير وضع فى جيبى علبة سجائره : العلم للشباب ، والسجن للجميع . نورس ونسنى فى انطلاقته . أراه من بين مربعات النافذة الحديدية . للزاوية القائمة تسعون درجة . صوت مصيلحى يصخب فى المظاهرة : (مصر مصر تعيش . . والسجن للخفافيش) . هل نبتت لنا أجنحة سوداء وشعر كثيف . قال الضابط محمد عبيد وعجلات الانجليز تطويه فى التل الكبير :

« الولس هزم عرابى . . نموت وتحيا مصر » ! .

(هـ) هل غادر الشعراء من متردم ؟ هلال أخضر يطلع فوق الموقع ببراعم مورقة . هل تبكى أمك فى حجرتها ، وجذعها المحنى فوق ماكينة الخياطة ينوء من ثقل المسئولية !

قال شيخ الحارة : « يمكن أن نؤجل تجنيدك حتى يكبر شكرى . » أخذت استمارة الفرز ، ذهبت إلى الزقازيق . وطابور طويل من السور الشائك حتى المكتب المعدنى داخل الخيمة : (لائق) . فى المقهى يقولون : (صاغ سليم) : ابتسامة أخاذة : لا أعرف كيف أشكرك . لقد أعدت لى حقيبة الخرز الزرقاء !

عبد العليم أرسل خطاب من جدة . قال أنه أعد لك عقدا للعمل بأجر مغر . هشمت قذيفة الفهد برج الدبابة الأولى . قفز جنودهم وانبطحوا أرضا . حصدتهم البنادق الآلية تحولت أحلامهم إلى وهم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

(و) وضعت الحرب أوزارها سقطت النقطة الحصينة منذ أيام . استسلم جنود الموقع ، ونقلوا للخطوط الخلفية ، رفعوا الأعلام البيضاء ومضوا حاسرى الأدمغة ، وقعت النقطة الحصينة فى قبضتنا ، ورفرفرت على امتداد البصر أعلامنا . وقفنا خاشعين أمام جثمان آخر شهيد وارتياه الرمال . بدأ رجال الـ(u . n) يتخذون مواقعهم . تراشق يومى خفيف ، وقائمة القتلى اليهود بالعبرية وأسفلها ترجمة بالعربية . جاء الحاخامات بقبعاتهم السوداء المميزة ، نبشوا فى بطون التباب والحفر . حلقنا ذقوننا واستحممنا . رائحة البارود لم تفارقنا بعد .

صرفوا لنا راتب شهرين . هل صرفوا لأبى تعويضا مناسب . الموت تحت عجلات السيارة ، والموت بقذيفة مدفع . ما الفارق يا رائد يسرى ؟ لم يستقر وقف القتال بعد . تراشق وتبادل قصف محسوب . شهيتنا مازالت مفتوحة للحرب . وهبنا القتال روحا جديدة . شمرنا عن سواعدنا ونظفنا أسلحتنا الآلية استعدادا لجولة جديدة علمنا أن ولدا صغيرا جاء مع رفاقه لزيارة الموقع . قدم لى باقة ورد وزجاجة كولونيا . زيارة مدرسية للجبهة لا يشبه شكرى .أخى أسمر ويبتسم كثيرا . خفق قلبى . كانت تشبه كوثر كثيرا حدقت فى النمش الخفيف بوجهها . قالت لى : حضرتك تشبه على ! قلت : أنت كوثر .

قالت : لا . أسمى منى .

(ى) يعرف رجال السرية الثانية مشاة من تلك الكتيبة أننى رفيقهم فى القتال الليلى . يعرفون أننى دفنت مع قذيفة الألف رطل التى أهالت رمالاً كثيفة . وغاصت فى الموقع دون أن تنفجر . يؤكدون أن عمرا جديدا قد كتب لى . قلت لمنى : أنت مخطوبة ؟

قالت : مازلت فى مستهل حياتى هذه أول سنة أعمل فيها بالتدريس .

قلت وقلبى يدق بعنف :لا أحب النهايات السعيدة لأننى أمل مشاهدة الأفلام العربية .

أشارت للأطفال أن ينظموا أنفسهم صفين ردت : لكننى أحبها .

قلت : منذ سنوات بعيدة أحببت نجيب الريحانى ، وأغنيات ليلى مراد . وأدوار كامل الخلعى .

لكننى اكتشفت أن الجروح أعمق من أن تلتئم بالكلمات المنغومة .

قالت : نراك على خير . على فكرة لماذا أنت عبوس الوجه .

قلت : رجال النسق الأول نادرا ما يبتسمون !

غادرت المكان . حين صار الأولاد خطين رفيعين أسفل المدن . كدت أهرول تجاه سيارتهم لكننى تـذكرت بكل اليقين أن رجـال النسق الأول ، والأنساق التالية عليهم أن يلملموا أرواحهم الممزقـة قبل أن تستغرقهم الحياة وتبتلعهم دواماتها العاتية .

شملنى راحة ووجه كوثر يبتسم لى .

كيف

يحارب الجندى

بلا خوذة؟

كيف يحارب الجندى بلا خوذة ؟

« كـان بطلا يـغـوص فى عـمق البـحـر ويثـقب زوارق الأعداء ويجرهم غرقى .. و !! » .

١ - العلم :

كان فزاع أول القافزين من القوارب المطاطية إلى الشاطىء الشرقى ، نظر إلى أعلى الساتر ، وانغرست خطواته الأولى فى الرمال الحبيبة إلى قلبه ، صاح : اقذف بالسلم الخشبى ، ولاتنس أن تثبت فى نهايته تلك الخطافات الحديدية . أشار لنا أن نتبعه بينما راح يتسلق السلم فى خفة ، وكأنه لا يحمل فوق ظهره عشرات الكيلوجرامات من المهمات القتالية ، مرقت بجوار أذنه قذيفة عندما اعتلى الساتر ، انبطح على الرمال .. لامست فاه حبيباتها الملساء .. بلا وعى قبلها ، نظر إلى جندى آخر بجواره .. كان منبطحا هو الآخر ، لم نكن نعرفه إلا أنه ابتسم .. زحف حتى صار ملاصقا له .. تفوه بكلمات غطى عليها صوت انفجار على بعد أمتار ، أهيلت الرمال فوقنا . قال فزاع للجندى : من أى كتيبة أنت ؟ كان رده أن ظل يحدق فى وجهه ، وابتسامته آخذه فى الذبول ، فجأة ارتعشت أطرافه .. كان ينزف بغزارة ، الجرح صبغ الصدر دما أحمر . انتزع الجريح كلماته الممزوجة بالألم : خذ هذا . ارفعه فى أعلى مكان .

كان الوقت ضيقا .. وهو يعرف أن كل لحظة لها ثمنها : طوى العلم بسرعة ، ووضعه داخل الخوذة .. نظر إلينا .. أصبح الطاقم متكاملا . قال لصابر : هل الأجزاء كاملة ؟ أننى لاأرى المسند .. رد فى هدوء : لاتقلق أنه معنا .

- إذن ينبغى أن ننتخب أقرب تبة لتكون ساترنا .

انحدرنا إلى أسفل الساتر من الجهة المقابلة ، وسرعان ماشاهدنا دبابة تطلق قذائفها من بعد . كانت تتحرك بجنون وعصبية .. سمعنا صوت انفجار مكتوم ، أعقبته انفجارات هائلة اشتعلت الدبابة على أثرها . تنفسنا فى ارتياح ، وأسرعنا إلى أقرب تبة .. انفجرت قنبلة على بعد خمسين مترا ، أطاح ضغط الهواء بزميلنا سعيد .. صحت : هل أنت بخير ؟ هز رأسه فى إيجاب ، أسرعنا بتجهيز الخندق الذي سيوضع به المدفع . تم تركيبه فى أقل من الدقيقة .. هللنا عندما انطلقت منه أول قذيفة . أخبرنا مركز الملاحظة أن الهدف على انحراف عدة أمتار من اليسار .. كانت القذيفة الثالثة قد دمرت الهدف ونالت منه صاح فزاع حكمدار الطاقم : كدت أنسى . ساعدنى يامحمود سنغرس هذا العلم فى أعلى التبة .

قلت : بهذه الطريقة تكون قد حددنا مكاننا للعدو .

- إذن سأزحف به حتى أقرب تبة ناحية الشرق . لاتوقفوا الضرب .

ماكاد فزاع يثبت العلم فى أعلى التبة المواجهة ، حتى فوجئنا بوابل من الطلقات يتجه نحوه . ظل العلم مرفوعا رغم كل محاولاتهم ، ماعدا بعض ثقوب فى اللون الأحمر ، عاد فزاع يغنى مواويله الصعيدية النيلية الحزينة .. لحظتها أحسسنا لها وقعا مبهجا وطعما جديدا .

صمت فزاع فجأة وقال فى أسى : هذا العلم ، لا أعرف هل استشهد صاحبه أم مازال حيا . لقد تركته ينزف .

سكتنا جميعا . كانت لحظتها طائراتنا القاذفة تعود بعد قصفتها الأولى. لوحنا لها بأيدينا .

قال سعيد فى دهشة : أظنكم تعلمون أنهم لايروننا .

قبل أن نرد ، أنساق جديدة من المشاة المصريين تتقدم ، بينما حاملو القذائف الصاروخية من خلفهم فى وضع الارتكاز . ازدادت صيحاتهم عندما رأوا العلم الذى غرسه فزاع ، غرسوا علما آخر فوق نفس التبة من الجهة الأخرى ، لم يصوبوا طلقاتهم عليه هذه المرة . كانت المعركة قد اشتغلت ، بينما أصابت صابر شظية ، راح يربط شندى مكان الجرح برباط الميدان .

اطمأننا عندما عرفنا أن الجرح سطحى ولكن فزاعا حزن عندما رأى رباط خوذته الجلدى مقطوعا . قال فى أسى :كيف يحارب الجندى بلا خوذة ؟

٢ - العودة :

رجع الأب من الصيد عند الفجر ، كان القمر مذبوحا . استقبلته الزوجة وفى يدها « السهارى » ، لحظتها كان الأطفال نائمين ، إلا أنهم سرعان ما أحاطوا بالأب ، وراحوا يجذبون سرواله الأسود المقلم . . أخذ يتحسس وجوههم فى الضوء الشاحب . . توقف وراح ينظر من الطاقة إلى البحيرة .

قال لزوجته : هيا ننشر « الغزل » كى يجف .

هرولت إلى الفلوكة الراسية فى أحضان الظلمة والطين ، راحت تجذب الشباك الثقيلة المبلولة ، وتنشرها على ظهر الدار . بينما تساقط قطرات المياه الساخنة وأخذت تدلك أقدامه .

قالت له : لاتحزن . البحر هكذا . يوما يعطى ويوما يبخل . هز رأسه موافقا .

كانت القوارب الأخرى تحدث صوتا رتيبا وكأنه ايقاع حزين ، حيث تلطم المدارى وجه الماء ، ثم عندما تقترب من الشاطىء ، لاتعد تسمع سوى صرير خافت ، فأعواد البردى الخضراء ، والنباتات المائية ذات الزهور البنفسجية تمنع المدارى من العمل ، فتنغرس المدراة فى الطين حتى العمق ، وتنزاح القوارب شيئا فشيئا ، بينما النورس لاينى يرسم أقواسا وهمية بجسمة الصغير . أشعلت المصابيح الكيروسينية فى كل الأكواخ القريبة الأخرى . كنت تستطيع أن تسمع بكاء طفل آت من بعيد ، وأغان باهتة لحناجر فقدت حماسها . وضحكة خجلى ، وكنت تستطيع أن ترى هذا الضوء الأزرق القانى ، وجه عم عثمان الحزين ، وزوجته أم شهدى التى أرادت أن تواسيه .

- غدا أسرح البحر معك .

- لم نفعلها منذ أصبحت زوجة .

- الولد البكرى ذهب الجيش ، وأنت فى حاجة إلى ونيس .

- ربنا موجود .

- لاتخشى شيئا . ذراعاى قادرتان على فرد « الغزل » ولمه .

- وماذا يقول الناس ؟

- سيقولون امرأته تساعده .

صمت ، ونزع قدميه المبلولتين . قالت أم شهدى : قم غير ملابسك وأرح جسدك لقد أتعبتك النوة .

٣ - الضفيرة :

بكت سلوى لأن أمها أجبرتها على أن تجعل شعرها ضفيرتين ، قالت لها أن مرفت صديقـتها تترك شعرها منسـابا وتضع فى أعلاه طوقا يزينه ، وهى تريد أن تفعل مثلها . ظلت الأم تقنعها بأنها عندما كانت طفلة كانت تطلب من أمهـا أن تضفر شعرها . وتزيـنه بشرائط حمراء جمـيلة ، وأنها كانت تشعر أن كل البنات الصغيرات يـنظرن إليها فى حسد ، لأن ضفائرها كانت أطول من ضفـائرهن . وعندما كانت تجرى فإن هذه الضـفائر كانت تهتز فوق ظهرها ، فتشعرها أنها تمتلك شيئا ثمينا . هزت سلوى رأسها فى عناد وقالت بغضب : أنه شعرى .

خرجت دون أن تشرب اللبن رغم الحاح الام ، ظلت أصابعها الدقيقة ترسم خطوطا متـقاطعة على اللوحة المصنوعـة من الخوص الأبيض ، متى تحين أجازة أبى ؟

ردت الأم : الله أعلم . تنهـدت سلوى وراحت تـتقـافـز الدرجـات السلمية ، وهى تغنى « ياشمس ياشموسه » ، وفى الطريق وقفت تنظر إلى المنزل المجاور ، كانت عليه رسومات غريبـة لجمال تسير وراء أصحابها فى تثاقل ، لكنها أصـغر بكثير من تلك التى رأتها ، ورأت الكعبـة الشريفة ، وعرفت الطائرة .

قالـت لعم محـمدين بائع الدوم : هل هذه حـرب ؟ كان أصـبعـها الصغيـر والعقـلات الثـلاث يشير إلى الطـائرة الرمــادية . وابتسـم وقال : لا يابنتى . أنها لرجـوع الحاج بركات من الحج بالسلامـة قالت فى براءة : وأين يحج الناس ؟

رد عليها فى استنكار : فى الحجاز بالطبع صمتت برهة ثم قالت : السويس أقرب إلينا أم الحجاز ؟

فهم كل شىء ، طبطب على كتفها : أنت إذن ابنة فزاع . سيعود إليك بالسلامة .

وضع قرشا فى يدها ، هزت كتفيها فى رفض ، وأطلقت ساقيها للريح .

٤ - البندر :

رفع مغاورى يده فى اعتراض ، وبعد أن مضغ مافى فمه من طعام قال لها مؤنبا : لابد أن يذهب الطفل إلى الطبيب . صاحت أم صابر وهى تخبط صدرها فى ذعر : طبيب ؟ !

وما الداعى لذلك ؟ لقد أصابته عين وأنا أعرف كيف يمكن شفاؤه .

قاطعها قائلا : المرض سيقضى عليه ، ينبغى أن نسرع بالتصرف .

ردت بلهجة قاطعة : غدا ، أذهب به إلى الخالة مباركة تعمل له حجابا .

نفض يديه ، وحمد الله على نعمته .. كانت الشمس فى هذه اللحظة تتسلل من ثقب واسع فى الجدار الطينى للدار ، لتقع على الجانب الأيمن من سرير الطفل الخشبى . . .

تقلب الطفل فى فراشه .. وضعت الأم يدها على جبهته .. حاولت أن تلصقها قدر الامكان بجلده المحمر .. حدقت فى أثر جدرى قديم . قالت للأب الذى كان يرتدى جلباب الحقل : معك نقود ؟ أصبحت كلماته

باهتة : ليس معى سوى قروش الدخان ، لاتكفى لشراء منديل يوضع على جبهته العارية تلك .

دارت فى الحجرة بلا هدف قبل أن تقول : وما العمل ؟

قال والضيق يخنق كلماته : لا أعرف ؟ منذ أن مـرض وأنا غير منتبه لعملى .

كان علينا أن نذهب به إلى الطبيب منذ البداية . حتى الآن لم يسحب أحد البهائم ويذهب بها للأرض . عليه العوض .

بدون أن ينتظر تعليقها خرج إلى حوش الدار ، اقترب منه كلب بنى ضخـم . حك رأسه فى ركـبتـه ، هز ذيله ، إلا أن الأب تخلص منه فى عنف ، تناول فأسه من أعلى حظيرة الماشية . . مسح بباطن الندى المتراص عليـه . . عـاود الكلب مداعـبتـه للأب ، الذى هـوى بيد الـفـأس علـى ظهره . . عوى الكلب عواء مخيفا وأنسل بين أعواد القمح القريبة .

فى منتـصف الطريق من الدار للغـيط ، شم رائحة البـخور نافـذة . استـدار فى بطء ونظر خلفه ، تأكـد أن أم صابر الآن تقصـقص قطعة من الورق على هيئـة عروسه ، وتثقبـها بالابرة ، ثم تضعهـا فوق « المنقد » ، بينما ترقى الطفل « بسم الله أرقيك . . من كل داء فيك . . الله يشفيك » .

هو يعرف أنه بعد ذلك سوف يخطو فوق « المنقد » سبع مرات مباعدا مابين ساقـيه ، ويعرف أن « السابعة باسم عبـد الله » . . لكنه يعرف أيضا أن الطفل لن يشفى مالم يذهب به إلى أقرب طبيب .

لقـد وافق الأم على أن يذهبا به إلى طبـيب طوال أسبـوع ، لا لأنه يعلم أن الأحجبة والبـخور هى التى ستعيد إليه صحـته وتشفيه ، ولا لأنه لايملك النقود الكافية .

- ففى استطاعته أن يبيع ماتربيه زوجته من دجاج فى سوق الخميس .

ولكن لأنه ظن أن اجازة صابر قد اقتربت ، ويستطيع أن يعتمد عليه فى أن يصطحب الطفل لأى طبيب بالبندر .

أنه فى خصومة مع البندر ، منذ أن زاره آخر مرة فى مولد (أبى المعاطى) . ذهب إلى نفس المكان الذى كانت تقام فيه حلقة الذكر ، حيث يلتقى بكل معارفه من أصحاب الطريقة ، وصدم عندما وجد بدلا من السرادق الفسيح والبيارق المرفوعة ، والرجال الذين أخذتهم الجلالة . . مسرحا للغوازى يرقصن فيه ويغنين . يومها أدرك أن البندر لم يعد فيه خير . وأقسم ألا تدوس قدماه أرض البندر مرة أخرى . تذكر كل هذا وهو فى طريقه للغيط . قال لنفسه أن صابر قد تأخر عن ميعاده ، وعليه أن يحنث فى اليمين ويذهب بالطفل إلى البندر كى يشفى . ثم أنه لن يستغنى عن البندر ، برغم ما ارتكبه فى حقه من حماقات ، فكثيرا مايزوره لشراء « الصيغة » والكسوة وحلاوة المولد . عندما وصل إلى الغيط ، شمر ساعديه ، رفع الفأس لأعلى ليطهر المصرف الصغير . قال : البركة فى الطينة .

٥ - اللوحة :

فى حديقة المدرسة تناثر الأطفال على الأعشاب الخضراء ، يرسمون لوحاتهم وبينما كان مدرس الرسم يمرّ بينهم وفى يده عصاه الغليظة ، همس عصام فى أذن طاهر محتجا : كل عام نرسم نفس الموضوع ؟ !

عض الأخير على شفتيه محذرا ، عندما سمع خطوات المدرس تقترب . . قال مدرس الرسم لعصام : ماذا كنت تقول ؟

صمت عصام . . مد يده اليمنى مغمضا عينيه توقعا لضربه العصا .

ابتسم المدرس وشاب ابتسامته حزن حقيقى : لو قلت لى ماذا كنت تقول لزميلك فلن أمسك بسوء . أحمر وجه عصام : كل عام تطلب منا أن نرسم موضوع الحرب . . الحرب . . ولا حرب حقيقة تحدث . . ولقد سئمت ذلك . . أتشوق أن أرى حربا حقيقية . غير تلك التى أخططها بأوراقى . تذكر المدرس زميله محمود ، مدرس التاريخ الذى ذهب للجندية منذ شهور . ومر بخاطره تلك الأيام التى قضاها بالجيش خلال شبابه . . كانت الذكريات تأتى بأدق تفصيلاتها . . الحياة الخشنة فى الدشم التى يحفرون لها بين طيات الرمال . . تدريباتهم اليومية العنيفة . طاقم الدبابة رقم ٢٤٣١ التى كان أحد أفرادها . . العدوان الثلاثى على بورسعيد سنة ١٩٥٦ . الدفاع المجيد عن « أبو عجيلة » و « القسيمة » .

قال لعصام وقد اكتسبت كلماته شحنة من الحماس : هل تعرف تاريخ ميلادك ؟

- نعم ١٤ مايو سنة ١٩٦٥ .

- قبل العدوان الاسرائيلى بعامين .

- لكننى أعرف كل ماحدث . وانتظر مثل كل زملائى اليوم الذى يمحى فيه جيشنا كل ما أصابنا . أتكأ مدرس الرسم على العصا ، رفعها لأعلى . ثم راح يقرب مابين يديه ، حتى انكسرت . التقت نظرات الطفل بالمدرس كان وجه غير منكفىء . . رأى فى عينيه مصر الآتيه . . معفر الوجه والثياب ، لكنها منتصرة . « الدبابة رقم ٢٤٣١ » تفتح التشكيل ، الجانب الأيمن ، هجوم مضاد على الموقع الثالث . « بلغنا عن حاضر » . رمى بالعصا بعيدا تجاه سور المنحل ذى السور الخشبى العتيق .

٦ - الخطاب :

ها هو الخطاب الذى انتظرته كثيرا ، نفس الخط المنمنم الذى تعرفه والذى طال اشتياقها إلى صاحبه ، أسابيع ثلاثة مرت وهى تنتظر بلا جدوى . قالت لنفسها : لعله لايجد الفرصة كى يكتب . أن وقته ليس ملكه . ثم يغالبها القلق ، فتأخذ فى قراءة خطاباته القديمة . لاتدرى سر هذه الكلمات التى تحس بها تومض داخلها ، فتمنحها الدفء والإشراق .

دخل حياتها فجأة ، فقلب كل شىء فى طبيعتها ، جاءت للعمل فى الشركة كمحاسبة ، وأعجبها جو العمل وروح الزمالة ، هو مختلف بالطبع عن جو الكلية ، الا أنها تأقلمت معه بسرعة ، واستطاعت أن تكتسب ثقة الزملاء .

ورأته ذات صباح يصافح الجميع ، ويطلق نكاته فيضحك لها الزملاء من قلوبهم ، ويترك وراءه عاصفة من المرح والبهجة . دخل مكتبها شد على يد الزملاء ، نظر إليها ، قدم لها نفسه فى كلمات جادة تتفجر بالمرح : سعيد عبد المولى . مهندس زراعى . حاليا جندى بالقوات المسلحة غير متزوج بالرغم من هذه الدبلة التى بيدى. أنها تقف للحسد بالمرصاد . وراح يضحك وهو لازال ممسكا بيدها ، ارتبكت ، ولم تدر هل تسحب يدها : أدهشه صمتها ، اعتذر ، وأشعل سيجارةقال فى لهجة جادة وهو ينتقى كلماته :

آسف أن كانت قد ضايقتك طريقتى فى التعارف . قالت له : أبدا . أنا سعيدة بالتعرف عليك . لقد سمعت عنك الكثير ، رسمت لك فى ذهنى صورة مختلفة تماما ، عادت الضحكة إلى وجهه : لعلك ظننتنى شابا وسيما !

ضحكت لكلمـاته . كان منظره مريحا ، كانت له تـلك السمرة التى لاتخطئهـا العين والتى تميز ملامح العـسكريين . جلست تتحدث مـعه عن أخيها الجنـدى فى السويس . وعن احتمالات الحرب . واسـتعداد القوات المصرية . حك ذقنه بيده وقـال لها : ستسمعين خيـرا . فى الأجازة التالية كان قد خطبها واحتفلت الشركة بالمناسبة .

وبدأ يعلمها أبجدية جديدة . اكتشفت فى شخصه رغم كل هذا المرح شيئا خفيا ، وجدته شابا يعشق أرضه ويؤمـن بمستقبلها . كان حديثه معها عن المستقبل مشرقا ومضيئا . وعندما كان يمسك بيدها كانت تحس بأنه يريد أن يقطع المسافـات ويلغى الأزمنة .. تغنى معه للقمـر والضوء . للسنابل والمنجل . وها هو الخطاب الذى انتظرته كثيرا . تستـنشق فيه عبير الأمل ، وترى فيه كل رموز الخصب والنماء . لكنها لاتدرى متى يتحقق لسعيد أمله فى اجتياز المحنة ؟ طوت الخطاب وغابت فى تفكير عميق .

٧ - هـويـــة :

لم أكن أفـكر فى شىء ســـوى أن هذه اللحظـات هى التى ظـللت سنوات طويلة انتظرها كانت الأحساسيس مبـهمة . النيران التى نصبها على العدو ، وتلك التى تنهمر علينا ، ودماء الرجال على خوذهم ، هى الشىء الواضح البسيط الذى تستطيع أن تصفه بحذافيره .

لم تعد هويتى ، هى تلك القطعة المعدنيـة المدون بها رقمى العسكرى ورتبتى كجندى ، واسمى وديانتى وفصيلة دمى .

اختلط كل شىءوماعـدت أستطيع التمييـز بين تلك الكلمات الرصينة التى كنت ألقـيـها عـلى تلاميـذى الصـغـار كمـدرس تاريخ وبين صـوت الانفجارات المتوالية انصهرت الأبجدية وأصبعى على الزناد .

كنت أسمع قرقعـات العجلات الحربية التى طرد بها أحـمس المعتدين الهكسـوس وطلقـات الـبوارج عـلى « طوابى » أحـمـد عـرابى بسـاحل الاسكندرية ، وكـرابيج السخـرة على ظهـور الفلاحين . . وأرى انكسـار الانجليز فى كفـر الدوار ومصرع كليبـر الفرنسى فى حديقته ذات أمـسية ، والومـيض الذى كنت تراه فى العـيون عندمـا يهب الطلبـة فى مظاهراتهم الضخمة تطوف بالقـاهرة وتمسح عن وجهها الأعياء ، فيـسقط الضحايا من فوق كوبرى عباس ، ودبابات الانجليز تهـدم كفر « أبو عبده » ، فلا تنقطع الانفجارات عن ثكناتهم . و « بلادى . . بلادى . . بلادى . » مـتصاعدة من حنجرة هـذا الشاب الذى ينفجـر قلبه بحب مـصر ، والحـمام الأبيض الذى سقـطت منه أغصن الزيتـون فى « دنشواى » ، والنسـاء المحجـبات يهتفن لسعد ويعرضن صدورهن للبـنادق ، وكلمات من القلب كتبها جواد حسنى على حائـط سجـنه ، وخيول نابليـون تـدوس المصـليين بالأزهر ، وعبد الله النديم يوزع منشـوراته ويجوب النجوع متخفـيا فى رداء الثورة ، ولويس التاسع مكبل بالأغـلال يساق لدار « ابن لقمان » . وكـتاب الموتى أرتل منه وأنا أشعر بثـقل الأحجار فوق ظهور بنـاة السد العالى ، وبالأتربة تملأ رئات من حفروا قناة السويس . عندمـا انطلقت أول رصاصة فى اتجاه الشرق ، كنت الفـرد الخـامس فى الطـاقم . فـكـرت فى طـفولتى بين أزقة المدينة ، ولا أعرف لماذا تذكـرت ليالى رمضـان وفوانيسه الملونة ، وأغـانيه الخضراء . ورحلاتنا قبل انطلاق مدفع الافطار إلى بحيرة المنزلة .

قلت لشهدى فجأة : هل تسمع عن حسن طوبار ؟

نظر إلى فى استغراب :لم أسمع عنه من قبل :

قلت : كان بطلا يغوص فى عمق البــحر . ويثقب زوارق الأعداء . ويجرهم غرقى قال وصوت « الفيكرز » يتز : لابد أنه كان من بلدتنا .

انشغل عنى بتصــويب المدفع ، أطلق فزاع قذيفته التــالية . وأشار لنا بأصبعه على الهدف المشتعل .

بينما كنت أحــمل بيدى قذيفة جـديدة . وانظر إلى العلم يرفرف فى أعلى التبة .



فى البدء كانت طيبة

معـفر الوجه بتـراب طيبة .. أين رحلة الأحـزان الشجيـة للشاطىء الغـربى الذى فى نهاية أفـقه تـغوص الشـمس الإله .. ارتحل بحنين نازف حامـلا فى الشفاه تلـك المعزوفات التى طالما ترنموا بهـا فوق النهـر ، باليد خوصا أخضر قربانا جديدا .

عريف أمين رمـسيس .. جئت من الصـهد والقيـالة .. حيث النيل محمرا لايزال حـاملا معه خصوبته ، جاريا فى رحم الغـيطان التى مافتئت تحلم بالأزهار ..

ابن العفرة والندب فى المآتم والسواد وأدوار الشاى الأسود الثقيل ..

قريتنا شـريط ضيق من حقول القـصب التى تسورها البيـوت الرمادية الكلـيلة الملامح ، وأشلاء مـعبد جرنيتى الأوصـال ، صلب كوجوه الناس فى بلدتنا ..

قريتنا .. ياخلق الله .. متـعلقة بكل حجر ، بكل عمـود مهشم فى هذا المعبد .. جلساتهم لاتخلو إلا فوق وحول الصخور المتناثرة فى فوضى محببة إلى نفوسهم .. يشمون فـيها رائحة الماضى .. وأنا مثلهم أبصر فيه ميلادا جديدا .

- أرسله يابن العم ليتعلم .. فبطون نسائنا ما أعطت إلا زراعا .

-والمال ؟ ..

- أرضك ! بع نصفها إن لزم الأمر ..

- يا خلق الله . . أنا عبـد الستار رمـسيس . . الصعـيدى ابن الطينة أفعلها . . كيف يكون جلوسى مع الرجال بعدها ؟

- إذن أتركه يعـزق الأرض ويجمع القـصب ويقضى ليله مـع النساء مثلنا . . اتركه ياعبد الستار . .

- أفكر . .

أهلى طيبـون ، ولكنه يتنازعون إذا رن فـأس فى حقل ، وعـرفوا أن صاحبه عثر على إناء من خزف أو تمثال من صخر ، واحتكره لنفسه ، ولم يتركهم يبـصرونه ، يتحسسونه ، يقـربونه من صدورهم ، يزيلون ما علق عليه من تراب فى عشق لا يوصف .

أهلى طيبـون . . ولكننى لا أعرف لماذا تنازعوا جسـد مومياء عـثروا عليهـا عندما كانوا يجـففون المستنقع الموجـود بناحية الشـرق ، وصمم كل منهم أن يدفنهـا من جديد فـى قبـر عائلتـه ، واتسع الخلاف ، وحـدثت خصومات ، وفى نهاية الأمر اشتركوا جـميعا فى بناء مدفن جديد يضعون فيه كل ما يعثرون عليه من موميات . .

لا أنسى ذلك اليـوم ، لبسـوا السواد جـميـعا ، حـتى أبى الكهل ، أحضروا مقـرئا يلبس قفـطانا باهت الخطوط ، تـلـى من القـرآن سـورا لا أذكرها . . وهزوا رءوسهـم فى حزن . . حتى النساء صبغن خدودهن بالنيلـة . . يأيـهـا المـوت القـديم العظيم ، ناشـدوك أن تتـرفق بهم فى بردياتهم . .

(أيا من يعجل سـير جناح الزمان يـامن يسكن فى خفايا الحـياة . . يامن يحصى كل كلمة أنطق بها -

انظر أنك تستحى منى . وأنا ولدك .

وقلبك مفعم بالحزن والخجل .

ألا فسالمنى . ألا فسالمنى . .

وحطم الحواجز القائمة بينك وبينى !)

عريف أمين رمسيس . . أرسلونى إلى الجامعة بعد أن باع أبى نصف أرضه . وباعت أمى مصاغها وذهبت لأعود إليهم فى كل أجازة . . أحكى لهم ماتعلمته فى « مصر » من حكايات عن جدودنا . . هؤلاء الأحباب الذين تركوا بقريتنا أعمدة معبدهم . وبعض حليهم ، وخزفهم حتى أجسادهم الملتفة فى أشرطة الكتان المتيبسة ، ورحلوا .

فى ليلة كل اجازة كنت أرجع فيها من الكلية إلى قريتنا . كانوا يتحلقون منقدا عليه ابريق الشاى النحاسى فى نفس المكان . يهزون رؤوسهم . . كبيرهم وصغيرهم . كان يفعل ينتظرون أن أقص عليهم كل شىء . أهلى الطيبون ، عمى خضير الذى أثناء حديثى يقوم من مجلسنا ويتحسس النقوش الغائرة فى العمود الوحيد الذى بقى قائما فى المعبد القديم . . هذا العم . . نسيت أن أقول أنه كليل البصر . . ولكنكم لو ترونه . . كالطفل الشقى الذى يضحك ويحزن ويقفز ويسكن عندما أحكى .

عريف أمين رمسيس . . عرفنى الجميع فى أمسياتهم بالأستاذ ، ورغم أنى كنت أحرص كل الحرص على أن أرتدى نفس الجلباب الذى كان لايفارق جسدى قبل ذهابى إلى الجامعة ، إلا أنهم أصروا على أن ينادونى بهذا اللقب .

وعندما تخرجت وجندت وذهبت للقرية بالكاكى . نظروا إلى طويلا وصمت أهل قريتنا جميعا ، إلا عمى خضير فقد ضمنى إلى صدره شد على يدى : رجل ياأمين ، من ضهر رجل . . يومها فرحت . . نظرت لأبى من طرف عينى يضحك . . كلهم يضحكون . . ولم يعفونى من الجلسة المعتادة . لكنهم أصبحوا يسألوننى أيضا عن الجندية . . عن الكاكى . عن مصر .

عريف أمين رمسيس . . يا أهل قريتى البعيدة . .

عبرت وحاربت . . وبكيت كالجميع . أنا الصعيدى الذى قضيت نصف عمرى لم أضع فى قدمى حذاء . أسرت الكثير منهم . ولكنكم لستم غرباء ، ستسمعون قصتى مع أهل قريتى . . قصة طيبة المعادة . هذه أول اجازة لى بعد أن عبرنا القناة ، كنت مرتديا الكاكى . نظروا إلى فى فرحة . حملونى على الأعناق ، جروا بى إلى المعبد قبل أن أذهب لدارى . يومها لم يسألونى أن أقص عليهم حكاياتى لكنهم تحسسوا ملابسى . جسدى . نظروا فى عينى ، حتى أطفالهم شدوا أطراف سترتى . ضحكوا يومها كثيرا. .

وفى المساء كنت أجلس معهم ، فى مكاننا الذى لم يتغير . . بجلبابى الأبيض . وشعرى الحليق وكان أبى هو الذى يوزع أدوار الشاى فى فرحة ، وكان عمى خضير يربت على كتفى من وقت لآخر وكانت تتنازعنى رغبات غير محدودة فى أن أرقص . أقوم وسط أهلى وأرقص . . أنا الذى لم أفعلها من قبل .

- أحك . . أحك لنا .

- لا تنس شيئا .

أنسى ! أنا أنسى ؟ سأقص ياأهلى .. من البرديات أقرأ .. ومن النقوش فى أعمدة وجدران المعابد استعيد الحكاية .. (لا أعرف لماذا قد نزلت بنا صاعقة فى عهد « تحتمس » من غضب الاله ، فقد تجرأ قوم من أصل وضيع من الشرق على غزو بلادنا . وقد كان مجيئهم أمرا مفاجئا وقد تسلطوا على البلاد بمجرد القوة فى غير ما صعوبة . وبدون نشوب موقعة حربية) .

لماذا كل هذا الحزن يا عمى خضير .. لماذا كففت عن توزيع أدوار الشاى يا أبى .. مازلت فى أول الحكاية .. البردية لم تنته بعد .. لا .. لا أريد شايا .. لقد نسيته فى موقعى الجديد .. (أحرقوا المدن بوحشية ، وأزالوا معابد الآلهة من أساسها . وساروا فى معاملة الأهلين بكل قوة . فقتلوا بعض القوم وسبوا نساء وأطفال أناس آخرين) .

يا ذلك الندب الأبدى الحزين . يا طيبة كيف صبرت على كل هذا الهوان ؟؟ وما كف آمون عن العطاء .. يا طيبة ، غسلنا بدموعنا خطايانا .. رفض الآلهة القرابين . وأمرونا بأن نسترجع ما سلبوه من زهور البردى .. ما حطموه من معابد .. تأملوا جميعا كل كلمة فى حكايتى .. تأمل ياعمى خضير .. تأمل ..

(تأمل إنها الدلتا فى أيدى من لا يعرفها مثل أولئك الذين يعرفونها وأن الاسيويين مهرة فى مهن أرض المستنقعات) .. فى أيدى من لا يعرفونها يا أبى . .وفى القلب جرح نازف .. وما سكتنا .

(ولكن الجائحة الشنعاء فى بلد (العامو) وكان الأمير « ابوفيس » فى « أواريس » وكانت كل البلاد خاضعة له . وكذلك كل حاصلاتها بأكملها . وكذلك كل طيبات « تميرا ») نعم .. أحكى لكم ..

لا تسألونى كيف عبرت مع الرجال .. ولا كيف سمعت نداء طيبة .. وآمون .. والرحلة الحنون إلى الغرب ..

ونظرات أمي بعينيها المكحلتين بالترقب .. لا تسألونى كيف عبرت ، ولكن أسألونى كيف كان اللقاء .. تأملوا ..

(تأملوا فأنى سأحارب (العامو) وأن النصر سيأتى وإذا بالبكاء .. فإن الأرض قاطبة سترحب بى بوصفى محاربا لأهزم « العامو » بأمر « آمون » صادق النصيحة . وقد كان جيش شجاع يسير أمامى كأنه عاصفة من نار) .

فجأة ياعمى حدث ما حلمنا به طويلا . أعطونا القوارب . هذه أرضكم السليبة .. استعيدوها .. يا من انتظرتم كل هذه السنوات وبالألم مضت أيامكم ..

كنت أحملكم فى أوصالى . ومعبدى برديياتى . طيبة ، الطيبة ، القوية السمراء ، النيلية ، الخصبة ، التفتق ، الزاخر .. لا تسألونى .. ولا تدمع عيونكم .. مازالت هناك سطور (ثم جعلت « العامو » .. الذين اعتدوا على مصر يولون الأدبار) حدث هذا يا أهل قريتى .. وكانت فرحة .. (ومضت الليلة فى سفينتى وقلبى فرح وعندما أضاء النهار انقضضت عليه كالصقر . وعندما جاء وقت تعطر الفم كنت قد هزمته) .

بحق النبتة المعطاة فى الوادى وأسوار المعبد المقدسة أقسموا .. وأقسم برغيف الخبز يشبع الأطفال .. أنا الصعيدى الأسمر . لم أشعر بحبى لطيبة مثلما شعرت ونحن نخلصها (وكان جيشى كالأسود عندما ينقضون على الفريسة ومعهم العبيد والقطعان والآدم والشهد . فقسموا غنائمهم وقلوبهم فرحة) .

عريف أمين رمسيس .. أسرت من الأعداء أربعة بمعونة زميلى فى الكتيبة .. لا ياعمى خضير ما كانوا يرتجفون بردا لكن ذعرا . يا أبى الطيب

ابنك حارب .. كأحمس بن أبانا الذى لم يكن ملكا .. ولكن فلاحا من طيبة .. يحب اللوتس والبردى .. يستهويه اللون الأخضر . لم يعتل عرشا .. ولم يمسك صولجانا ولكنه تشرب حب الأرض والحياة .

يا أبى الطيب .. أحمس ابن أبانا هذا ، ماصنعوا لجثته هرما ولاجرجروا من أجله الأحجار مئات الفراسخ . بل ابن فلاح أتلفت الديدان نصف قمحه .. وأكلت أفراس البحر ما بقى منه . ووهب ابنه جنديا شجاعا لمصر .. هذا هو الابن ..

(وعندما بدءوا الحرب على الماء فى القناة « بزدكواواريس » أسرت أسيرا وأحضرت يدا . وقد أعلن ذلك لحاجب فرعون . ومن أجل هذا أعطيت ذهب الشجاعة) .

نحن يا أبى الذين حاربنا ..

كل حفنة رمل استرجعناها كنا نحتضنها .. نستنشق النسمات التى لم تكن تدخل رئاتنا إلا محروقة .. أسرنا الكثير يا أبى ، كنا نعهد بهم فى أحيان كثيرة لبعض جنود الصاعقة ، على أن يحملوهم إلى الشاطىء الآخر ، كانت هواية محببة للكثير .. هواية قديمة .. البردية تحكى ..

(وعندما حاربوا فى مصر فى الجزء الجنوبى من هذا البلد ، أحضرت أسيرا حيا ، وقد ذهبت إلى الماء لأنه كان قد أسر فى الجهة الأخرى ، وقد أعلن حاجب الملك بذلك ، وتأمل لقد كوفئت بذهب الشجاعة من جديد).

عريف أمين رمسيس ..أبى كهل باع نصف أرضه لتعليمى .. عمى خضير يحتضنى كلما رآنى مرتديا الكاكى .. بقريتنا معبد فرعونى من نقوشه ارتل .. مع أهلى أجلس فى المساء .. لنسترجع قصة طيبة .. نسترجعها من جديد .



سقط فى الثانية صباحا

من غرفة عمليات الكتيبة ١٨ إلى قيادة اللواء ١٦ مشاة :

كان هذا الموقع بالذات من أخطر مواقع العدو ، ظل يصب نيرانه على قواتنا المخندقة فى باطن التبة مع آخر ضوء حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى دفعنا إليه بمجموعة مكونة من أربعة أفراد ، تمكنوا من إسكات الموقع ، وتدمير بطارية الميدان من عيار ١٥٥ مم ، وقتل أفراد الطاقم ، بينما استشهد أحد جنودنا ، وأصيب آخر باصابات طفيفة ، تم هذا فى الثانية صباحا . انتهى . .

الولادة:

هل مات ولدى عبد الموجود ؟ لا تتركونى حتى أحكى لكم . . الدار التى تجلسون فى صحنها داره ، والمساند التى تستند عليها ظهوركم اشتراها لنا منذ عام . كان بشوشا ضاحك الوجه . . الولد الوحيد فى خلفتى الذى ضحك بعد ولادته بساعات . . عندما أمسكته وكان كقطعة لحم حمراء ، حدقت فى ملامحه ، مغمض العينين ، يرفس برجليه الهواء ، أخذته من بين يدى الخالة مباركة الداية ، قطعت خلاصه وغسلته بالماء الفاتر ، ولفته فى مخاطه القطنى الأبيض ، ثم أعطتنى إياه . غفوت ، وعندما صحوت كان فى أحضانى يضحك . . أقسم لكم كان يضحك بلا صوت . فمه يرتعش بعض الشىء . بكى بعدها كثيرا إلا أنه ضحك كما لم يفعل أى طفل من أطفالى . . وأسألوا أم هند فقد حضرت ميلاده وهى التى قدمت لى كوب المغات المحوج ، وقالت لى أن وجهه فيه نور ،وأن هذا من بشائر السعد . . كانت النخلة التى يستند سعفها على السقف ليست بهذا الطول ، ولم

يكن الخلق بمثل هذه الكثرة ، حتى « الراديو » ما كان يوجد إلا فى دار العمدة ، وكان زوجى ساعتها يجلس هناك يسمعه ، فقد ظن أننى لن الد . . الليلة لم أتلو من الألم كما تفعل الجارات ، ولم أصرخ فتشق صرختى الليل كما فعلت خديجة قبلى بأيام . . أتت ولادتى دون أن أحس كنت خائفة قبلها . . ولكن تم كل شىء فى دقائق . . وعندما جاء زوجى مهرولا ، والعرق يتصبب من وجه . . أخذت يده بين يدى ، قبلنى للمرة الأولى أمام الغرباء . ثم رفع الطفل بين ذراعيه قرب من المصباح . تأمل الوجه الطاهر ، وضحك . . ضحك . . وأخذ يهدهده ، لف الحجرة كلها وظل جالسا بجوارى حتى الصباح ونسى أن يغلق نافذة الحجرة المجاورة . . فكنت أسمع نقيق الضفادع تتهادى إلى سمعى تباركنى ! ؟ فهل حقا مات عبد الموجود ؟

الجـــرة :

قابلنى أول ما قابلنى وأنا أملأ الجرة من ماء الترعة : لم أكن وحدى بالطبع . . كنت وسط مجموعة البنات ، أضع الجرة فوق رأسى مائلة بعض الشىء ، ثم أغنى معهم « . . يا حمام العمدة . . ياحمام الغفير . . » تربص لى بين أعواد البوص النحيلة القريبة من منزلى قال أنه سمع صوتى، وأنه أجمل صوت سمعه فى حياته ، طلب منى أن أغنى له وحده . . خفت أن يرانا أحد ، جريت نحو دارى . . من خجلى تعثرت . . وسقطت الجرة على الأرض فانكسرت . . بكيت ونظرت ناحيته ، رأيته يضحك ، تحولت دموعى إلى بسمة أخذت تتسع . فى اليوم التالى كنت أغنى له وحده . . وكان قد اشترى لى زجاجة عطر من البندر ، ومنديلا مطرزا رأته صحيباتى فتخاطفنه وعندما جمعنا دار ، وزغرطت أمه ظل يذكرنى بهذه الحكاية كلما تخاصمنا . . فكنت أصالحه ونضحك . . فهل مات حقا عبد الموجود ؟؟

السيجارة :

أنا زميله فى الجندية يوما بيوم ، حشرونا فى القطار الذاهب إلى أسيوط مع الرقيب خليفة الذى كان يعدنا بعد كل محطة يهددنا حينا ويغرينا حينا كنا سعداء لأننا أصبحنا رجالا ، يحلق شعر رءوسنا ونرتدى الملابس العسكرية ، ونسير فى طرقات القرية بارزى الصدور ، بينما الصبية ينظرون .

إلينا فى حسد والبنات فى إعجاب. كان فرحا .. سألته السبب فأخبرنى أن له زوجة وطفل ، قدمت له إحدى سجائرى .. أخذها .. وضعها فى فمه دون أن يشعلها قال لى والقطار يعدو بين الحقول كالمجنون ، أنه ترك أرضا ينبغى أن تحرث . وزرعا لابد أن يروى وعندما خففت عنه أحزانه ، أعاد لى سيجارته دون أن يشعلها .

جاءت قرعتى معه .. نفس الكتيبة .. فى إحدى المرات وصلته رسالة من زوجته ، مزق الغلاف وبدأ يقرأ ، رأيته يضحك بصوت عال ، سألته السبب ، هاجمه الحزن فجأة : اتعلم .. طفل جديد !

ضممته إلى صدرى وأعطيته السيجارة التى طلبها . فهل حقا مات عبد الموجود ؟!

العصـــا :

لم أضربه مرة واحدة .. كنت أشعر أنه أكبر من العقاب ، فى المرة الوحيدة التى رفعت فيها العصا لأهوى بها على يده ، نظر إلى بعتاب ، فقذفت بالعصا من النافذة ، ولم أعد أحملها داخل فصله .. نبيها كان ينتظر حصة التربية الدينية ليرتل سور القرآن التى حفظها على يد الشيخ سلامة بصوته المنغوم العذب ، فيهتز ظهره بينما يضع كفيه خلف أذنيه . وعندما مات والده ، بكى لأنهم أخرجوه من المدرسة . ذهبت لأمه فى

الدار قلت لها أن عبد الموجود سيكون مستقبله عظيما ، هزت رأسها فى حسرة : ومن يزرع الأرض ؟

أصلحت من عمامتى ومضيت : خسارة يا عبد الموجود .. كنت تجمع الأرقام وتطرحها فى رأسك الصغير وتراهن فلا تخسر .. فلماذا أخذتك الأرض من المدرسة ولماذا لم يتركوك تكمل تعليمك ؟

ذهبت للعمدة .. طلبت منه أن يتدخل ، قال بامتعاض : وهل ستطعمهم كتبك ودفاترك ؟!

بعدها بسنوات ، قابلنى عبد الموجود ، شابا يافعا ، التماعة الذكاء فى عينيه ، خطف يدى وقبلها . استغفرت الله . قال لى أنه أحبنى فى اليوم الذى قذفت فيه العصا من النافذة .

فهل مات عبد الموجود ؟

مكنة الرى :

أخطأ عبد الموجود فى حقى أمام أهل القرية ..

كنا جلوسا فى المقهى نلعب « الدومينو » ونرتشف الشاى ، عندما جاء واستند على الباب الخشبى الثقيل .. طلب منى أن أترك له مكنة الرى ذلك الأسبوع .. أخبرته أنه دورى إلا أنه أقسم أن الدور دوره وأن الزرع سيجف ، ويتلف المحصول بسببى .. ولما أقسمت أنا الآخر أننى لن أتخلى عن حقى الواضح وضوح الشمس ، أرغى وأزبد ، ضرب المنضدة التى أجلس عليها بقبضته ، فتطايرت قطع « الدومينو » ورأيت الشر فى عينيه . قلت له أننى لن أتنازل ، فجذبنى من ياقة جلبابى ، وأخذ يهزنى متوعدا تدخل أولاد الحلال وقالوا أن الأمر لايستحق الشجار ، وأن الصلح خير .

أرسل العمدة لنا بعد علمه بـالخبر ، ذهبت جاسر الرأس ، وانتظرت مع العمدة طويلا فلم يحضر !

أقسم العمدة أنه سيكسـر رأسه . . لأنه لم يخلق بعد الشخص الذى يعصى أوامره . . وعندمـا رجعت لدارى وجدته يستند على جـذع الشجرة القريب . . تخوفت وكـدت أصرخ ، إلا أنه أحاطنى بذراعيـه اعتذر لى ، قال أن الغضب أطاح بعقله . . وفى الليـلة التى بعدها ، قدم لى كوبا من الشاى فى المقهى أمام أهل القرية ، وقبل رأسى !.

اللوحـة :

أنا مـلازم أول مصطفى عـبد السـميع . دخلت ملجـأه فى الظهـيرة للتفتيش ، استرعى انتباهى تلك اللوحة التى علقها فوق سريره المصنوع من الصاج المتعرج . كانت تمثل طفلا نحـيلا فى جلبابه الممزق تقف على رأسه حمامة السلام وفى منقارها غصن زيتون أخضر .

سألته فى فضول : لماذا تعلق هذه اللوحة يا عبد الموجود ؟

-أعجبتنى !

- ما الذى أعجبك فيها ؟

- السعادة التى تغمر هذا الطفل عندما يشعر بألفه طائر .

- ما الذى علمك هذا ؟ . أنها لوحة شهيرة لفنان عالمى .

- أعلم . وصاحبها بيكاسو ؟. .

- الذى أعلمه أنك لم تحصل على مؤهل .

- لكننى- سيدى الملازم -قرأت وتعلمت الكثير .

جلست أجاذبه أطراف الحديث . بهرنى بكلماته التى كانت تنساب فى بساطة لكن بوعى وفهم . كنت أظنه بملامحه الخشنة ، ولهجته الصعيدية وبزيه العسكرى الفضفاض الذى لم يكن يعتنى به قط فلاح من أهل الجنوب الذين حرمتهم الظروف من التعلم ، خاصة بعد الاطلاع على نموذجه العسكرى الذى أفاد بأنه لا يحمل شهادات .

لكن اللوحة التى رأيتها ، وكلماته التى أذهلتنى ، جعلت من ملجأه المكان الذى ألوذ به من الملل والوحدة ، كلما دهمنا الليل بظلامه وعلى ضوء مصباح كيروسينى معلق فى سقف الملجأ كنت أستمع إلى مواويله الحزينة التى لم أكن أفهم معناها إلا عندما يفسرها لى .

وصادقته ، بل عجبت بشخصيته التى دعمتها رجولته فى المشاريع القتالية . فكنت أعتبره صديقا لى وليس جنديا يأتمر بأمرى . .

فهل حقا مات عبد الموجود ؟

الثانية صباحا :

اليوم الثالث للحرب ، كانت قواتنا قد قامت بحركة التفاف مفاجئة حول اللواء الاسرائيلى المدرع الذى حاول أن يصنع رأس جسر فى القطاع الأوسط نجحنا فى تدمير عدد كبير من مدرعاته ، أخذنا فى مطاردة الدبابات التى حاولت الفرار ، كانت أشبه بخنافس سوداء ، مذعورة تتحرك بلا هدف . . كانت تعاوننا مدفعية « الهاوتزر . . » أثناء تقدمنا أخذت القذائف تنهال علينا . . أمرنا القائد أن نتخندق فى باطن التبة ، بدأنا نصب نيراننا على مواقع العدو . . سكنت إلا موقعا راح يمطرنا بقذائفه بلا توقف . اقترح القائد أن تقوم مجموعة منا بمهاجمة الموقع زحفا . إختار الملازم مصطفى أربعة أفراد : عبد الموجود وميخائيل وسالم وأنا .

تقدمنا فى حذر علقنا قنابلنا اليدوية فى « القايش » من الخلف .. أخذنا نزحف فى بطء ، تفصل بين كل جندى وزميله مسافة واسعة .. اقتربنا أكثر لمحت حزمة النيران تنطلق من فوهة المدفع ، انبطحنا ثانية .. أشار عبد الموجود لنا.. فى لحظة كانت قنابلنا اليدوية تحيل الظلام إلى ضياء ، أصوات الانفجار ، وشاهدنا قطع الحديد تتناثر وسط الدخان الكثيف .. تقدمنا ، فى هذه اللحظة أطلق أحدهم دفعات متلاحقة من رشاشة « العوزى » أصابت صدر عبد الموجود .. حاولنا إنقاذه ، لكن الاصابة كانت خطيرة قذفنا بقنبلة أخرى تجاه الجندى الاسرائيلى أطاحت بالجسد الضخم .. تفقدنا الموقع كانت عشر جثث وبقايا مدفع محطم ، وخنادق الذخيرة المتناثرة ، ومعلبات عديدة ، وعلم باهت .. اتصلنا بالقيادة ، أمرت باخلاء الجرحى .. أصبت فى كتفى إصابة سطحيه . حملت عبد الموجود على كتفى . حمل ميخائيل أسلحتنا .. بكى سالم عندما جس نبض الجريح .. وعندما وصلنا إلى بطن التبة ، تساءل الجميع :

هل حقا مات عبد الموجود ؟؟

حبة الجوافـــة

حين انضم إلى وحدتنا العسكرية ، ولاحظـنا قصره الملفت للنظر كنا نتعمد دائما أن تكون نوبة « الكينجى » القاسـية من نصيبه . وحين تتهادى سيارة التعيين على المدق الجيرى ، كان يسـرع بالأوانى المعدنية الخالية ليعود بها ممتلئة ، تـفوح منها رائحة الطبيخ ، ورغم ذلك كـان يحصل على أقل قدر دون أن ينبس بكلمة واحدة . وفـى آخر مرة ونحن فى مناورة الخريف جاءت السـرية سلة بها ثمار الجوافـة ، حاول الرقيب مصطفى أن يـوزعها بالتساوى فيما بيننا فاكتـشف أن واحدا منا لن يحصل على نصيبه . تحشرج صوته وهو يسأل : من الذى يتنازل عن نصيبه هذه المرة ، وفى المرة القادمة أعده بثـمرتين ؟ الجميع صـمت وحاصرته العيـون ، فهز برأسه راضـيا ، والتهم الجنود الثمرات دون أن يفكر أحدهم فى هذا التعس الذى جنى عليه قصـره . وحين أرسلوه ليأتى بتـعيين الأسـبوع من السجـائر عاد بالكمـية مضاعفة . ففهمنا أن درجة الاستعداد على وشك أن ترفع .

نقصت علبتان ، وحين إتجـهت الانظار نحوه كى يتنازل كعادته انقض على نصيبه ، واندفع إلى الملجأ وهو يزوم كنمر هائج .

والآن ، حين يشتـد قصف مدفـعية الهـاوتزر ، ويشعر قـائد السرية بحرج موقفنا ، يسأل بنظرة كلها لهفة: من يصلح أسلاك الموقع ؟

يزحـف كـالخنـفـسـة السوداء ، فى إصـــرار يتحـرك ويبـحث عن الأسلاك المقطوعة ليـوصلها ، وهو يبتسم نفس الابتسامـة الساخرة التى لا تعنى شيئا .

بعـد تطـوير الهـجـوم ووقـوع حرب الدبابـات التصـادمية حوصـرت النقطة ، وطلب من قائد السرية رفع العلم الأبيض ، كـان الاستسلام يعنى نهايتنا ، وكـانت قطرات المياه قد نفـدت تماما . أما معلبـات الفول وقطع الجبن المحفوظة فلا تكاد مع الخبز القليل اليابس تسد الرمق .

نتقل من موقع إلى مـوقع والنقطة محاصرة ، و القصف يشـتد كلما أوغل اكتوبر فى معانقة ساعاته وهو من خلفنا يجر « المخلة » وهى ثقيلة . أقول له : عنك . فيرفع يده رافضا مساعدتى .

لقد أوشكنا على الهلاك ، ولم نتمكن بعد من فك الحصار الصارم .

رفع صوته النحيل ونادى علينـا جميعا ، صرخ القـائد فيه وهو يرانا نتجه ناحيتـه : ماذا جرى لك ؟ لم تريدهم ؟ لم يرد . فقط رأيناه جـميعا يفك حبـلا غليظا كان يربط به عنق « المخلة » ويسكب كل مـا فيهـا وكان حـاويا يلعـب بمهارته وخـفة يده ألعابة المثيرة ، تناثرت معلبـات لا حصر لها ، أرغفة يابسة ، قطع البسكويت فى غلافـها الشفاف ، معلبات أسماك محفـوظة ، زمزميات مياه ممتلئـة ، بعض حبات الاسبرين . مـخزن تعيين كامل كان يخـفيه هذا الماكر ، ونحن الذين كنا نعتقـد أننا نضحك عليه ، كيف بالله خدعنا ؟

نظرنا نحوه ويده تمتد إلى هدف محدد ، تناول حبة الجوافة ، ضحك وهو يقضـمها : أظن أن هذه حـقى . وضحكنا جـميعـا ونحن نعانق هذا القصير الماكر الذى مد يوما فى عـمرنا ، قبل أن تفلح قوات المشاة فى كسر الحصار وانقاذنا من هلاك محقق !

جندى الإشارة

حين أوشك الليل أن يتردى قتيلا تحت أقدام طلائع النهار تحصنوا فى حفرهم . وقبعوا خلف السواتر ينظفون أسلحتهم بـ « الحربى » . سمح لهم القائد بإشعال سجائرهم بعد أن كان الحذر مفروضا على الجميع حتى أن عقلهم كاد يطيش .

وضعوا بعض العبوات فى حفرة صغيرة وأشعلوها ووضعوا فوقها إبريق الشاى النحاسى الذى سرعان ما اهتز تحت وطأة غليان الماء . صبوا بالقسط أنصبتهم فى أغطية الزمزميات . وعلى حين غرة انطلقت المدافع المعادية تصب جحيمها على الموقع . لم تمتد يد لتضع الكوب . بل ظلوا يدخنون بشراهة ويرتشفون الشاى فى تلذذ . كان القائد يشعر بأن تلك اللحظة الفاصلة هى التى تعيد شحن مقاتليه بروح إنسانية جديدة . لذلك لم يعترض حين خلع جندى الإشارة سترته وقد عصفت به لحظة صفاء انسانى نادرة . إذ راح يرقص فى الساحة المكشوفة وهم يهمهمون معه ويغنون : « على بلد المحبوب وديني » تصفيقات كلها متعة ، وأشجار قزمية صغيرة تنصت للغناء .

حين انتهت سجائرهم ، وألقوا بالبقايا المشتعلة فى الرمل الأصفر البارد ، قبضوا من جديد على بنادقهم الآلية .

بينما كان جندى الإشارة قد سكت تماما بعد أن اخترقت شظية كتفه ، وتوغلت شظية أخرى جهة القلب . قلبوه وصنعوا حفرة عميقة ودفنوه وأمطروا المواقع المعادية بقذائف الهاون .

أما القائد فقد أمر جنوده أن يواصلوا الغناء ، ودعم طلائعه المهاجمة بأفراد القناصة . لم يكد القتال المتلاحم ينشب حتى سقط للأعداء جنود كثيرون .

وسط الدخان وهشيم صناديق الذخيرة ، وبقايا علب التعيين كان مكانه معروفا .

وكان القتال كر وفر ، وإقبال وإدبار ، وقتلى وجرحى . وحصار ودمار .

وفى كل مرة ينقص عدد المحاربين أما من بقى فقد كان يذهب إلى نفس الحفرة ، ليسقى بغطاء زمزميته نبتة خضراء ، أورقت رغم العفار وأنفاس الموت .

وفى نفس المكان الذى ضم هيكل جندى الإشارة كان الهواء كل ليلة يهب هباته المألوفة ، فيسمع جنود الخدمة الليلية تلك الأغنية « على بلد المحبوب وديني » !

نوبـــات الراحـــــة

هذا الذى كـان من المقـاتل . إذ أنه أدرك أنه محـاصـر من الجهـات الأصلية الأربع . فأحاط جسده بحـزام الديناميت وقبع فى خندقه البرميلى انتظارا لدبابة « البـاتون » وحين سمع هدير جنزيـرها تهيأ لمـلاقاة الموت . وكان يتـصوره بلون الرماد وبامتـداد الأفق ، يغوص فى متاهتـه ، ويتخلى عن كل تلك التفصيلات المرهقة . لكن الذى حدث ولم يكن على استعداد لتوقعـه أن الدبابة عندما أصبحت عـلى مقربة امتار قـلائل عطبت . وكان الليل يزحف بضراوة . ويوشك أن يبـتلع آخر خيـوط الضوء الواهنة . فى ذلك التوقيت الحـرج حلقت طائرة عمودية وألقت بقنابلهـا فأصابت الدبابة بطريق الخطأ .

صار موقفه أكثرحرجا . وأدرك أن عليه أن يعيد حساباته . فك الحزام العريض وتحـسس خصـره المرهق ولمس بأصابعـه الجلد المحمـر المشدود فى تسلخات صارت تؤلمه .

أطاح انفجار الذخيرة ببـرج الدبابة ، وكان جنود الأعداء يقفزون هربا من الجحيم المشتعل . يكاد ريقه أن يجف . فقد آخر قطرة من « زمزميته » منذ أمس . زحف مستترا فى غطاء الليل . كانوا كلهم جرحى يئنون . لمح جثة أحدهـم ممدوة وبجوارها شجرة صبار تكاد تذوب فى العـتمة . زحف أكثـر . وتزايد الأنين . انتزع السـونكى من « الجفـير » وحرك نـصله أمام عينيه ، وركض نحو جسد الدبابة العملاق .

كانوا يرطنون بالعبرية ، وهو لا يفهم منها حرفا . ابن خاله صبرى تخرج العام الماضى فى كلية « الالسن » وكان يمر عليهم أمام حانوت البقالة ، ليمزح معهم ويقول وهو يغيظهم « شالوم » فيرمونه بقطع الحجارة ، وهو يقفز ويطير من أمامهم مصطنعا الخوف . أين نراه الآن وقد رآه حليق شعر الرأس منذ شهرين بعد انخراطه فى الجندية ؟

كان أحدهم يمد يده نحو فمه . تقدم بحذر من جسم الدبابة ، كان الدخان مازال يتصاعد ، ورائحة الدم مختلطة بالبارود تملأ المكان . وهدير مدافع متباعدة لايكف . وعمر من الثأر يمتد منذ تاريخ بعيد لاينتهى . غاص فى جوفها الملتهب وعاد ببقايا « جركن » ماء ، صب فى زمزميته الخالية الماء حتى انسكب ، لم يكن يرى الأشياء بوضوح . هداه الانين إلى أماكن الجرحى راح يصب فى أفواههم المفتوحة بعض الماء . تمددوا فى نفس أماكنهم ، حاولوا أن يتساندوا عليه ، كانوا يتحدثون وهو صامت . هل ظنوه واحدا منهم ؟ لايعرف . كل مافى الأمر أنه تأكد أنهم شربوا جميعا من زمزميته . وارتووا فى هذا المكان القفر ، وحين ارتفعت يده بالزمزمية ليشرب ، وكادت الحافة المستديرة تلمس شفتيه . شعر بنصل حاد يشق كتفه . كان انينه مذبوحا وقاسيا . زحفوا تجاه الشرق وهم يحاولون فى صعوبة أن يخففوا من جروحهم ، وحروقهم وحين رفع يده مشيرا لهم نحو فمه كى يطفئوا ظمأه . عاجله خصمه الذى شرب من يده الماء منذ لحظات بطعنة أشد إيلاما . ومضوا تاركين إياه يتخبط فى دمه . وعلى مقربة منه حزام الديناميت . وسونكى يلتمع تحت ضوء القمر ، وكتاب صغير للمتنبى ، كان يحب أن يقرأه فى نوبات الراحة !

المجذوب

مشهد يتكرر :

فى الزحمة كان يقف ، شاهرا سيفه الخشبى فى الوجوه المندهشة ، خلفه تجرى جماعات الأطفال بأقدامهم الحافية، وشعورهم المنكوشة ، يدفعونه بأيديهم الصغيرة المتربة ، وقميصه الممزق يمتص خيط الدم المنسرب من إبهامه . دمعت عيناه ، بكى ، ولم يتركوه . كانوا يرددون صيحتهم المنغومة : « يا حداية يا أم دواية . . جوزك مات فى دمياط . . صوتوا لها يا بنات . . بالعصاية والكرباج » . استند إلى عمود الإنارة وسط الميدان . كانت الشمس محتجبة خلف السحب الشهباء التى تمر فى تثاقل وبطء شديدين . رفع يده يحمى وجهه من قطع الزلط والحجارة ، زفر بحرقة ومالبث أن ركل حجارة الطوار البازلتية فى زهق . جرى يسار شارع الناصرية منفلتا من حصارهم المضروب حوله . لاحقته ضحكاتهم الساخرة . وقف رجل أمام ورشته ، صرخ فى الأولاد : انصرفوا إلى بيوتكم . . دعوه فى حاله . تقدم من « مسعد » المجذوب ، قدم له كوز الصفيح ممتلئاً حتى حافته . كنت أرقب ذلك المشهد اليومى ساعة العصر ، ولم أخلع ثياب المدرسة بعد . . أراه جالسا يلتقط أنفاسه ، والأطفال ينصرفون لبيوتهم بخطواتهم الصغيرة وتأتى أمى ، تهزنى من كتفى : هيا . الطعام .

أحدثها وقلبى به غصة : ياالحزنى على الرجل . لقد أشبعوه طوبا !

تجذبنى أمى من أفكارى : مسعد . . إن حكايته حكاية .

الذهاب :

قالت أمى ، بعد أن فرغنا من طعامنا الذى تأخر بعد أن فرغت من الغسيل :

لقد كان زينة شباب هذا الحى ، بعوده الفارع ، ووجهه الخمرى ، وشاربه الكث الغزير . لم يكد يمضى على تخرجه من كلية الهندسة سوى شهرين حتى طلبوه للتجنيد . الحاجة سعدية وضعت خدها على يدها وبكت بكريها ، راحت بين المكاتب تهرول محاولة أن يكون توزيعه على وحدة عسكرية قريبة . قالت لكل من قابلته أن أباه يقضى معظم الوقت فى أسوان ، وأنه الابن الأكبر ، بعده أنجبت بنتين ، وانقطعت أعواما طوالا ، ثم أتت بطفلها الصغير الذى لم يتجاوز عامه الرابع . وأن البيت يحتاج لحس رجل . أفهموها أن ذلك ليس بأيديهم .واسوها وقالوا لها فى رقة أن الأيام تفوت بسرعة ، وأن الجيش يخلق رجالا .

كانت موقنة أنه يضيع من بين يديها كالسراب ، صرخت حين عادت فى صورة زوجها داخل إطارها الخشبى: أنت أردت الانجاب ، وقد حذرتك فى تلك اللحظة دخل مسعد ، رمقها فى حنان وقبلها على جبينها ، وسألها : لماذا تخافين ؟ لست أول الشبان ولن أكون آخرهم . ثم أن هذه ضريبة الوطن . ولو فعلت كل أم مثلما تفعلين لأصبحت الجبهة بلا جنود !

لم تجرؤ الأم على النظر إليه ، تشعر أن الزمن يتربص بها ، قالت :

سوف أذهب معك للفرز . لن أتركك.

رفع يده معترضا : لست صغيرا . وجودك معى لامعنى له . وسيعقد الأمور .

استكانت للأمر الواقع، عرفت أن مسعدا قد كبر وصار رجلا ، وأن المدة التى سيقضيها لا تستدعى كل هذا القلق .

قالت له : سأتركك تذهب ، لكن عليك أن ترسل لى خطابا كل يوم .

ضحك وتجمعت حوله خيرية وثريا وصديقتهما سوسن . قالوا له بصوت واحد : تمام يا حضرة الأومباشى .

سوسن سألته : أتكتب كل يوم خطابا ؟ هز رأسه بالايجاب .

استشعر خلف الكلمات بعض المعانى الخفية . خاف أن تعرف الأختان قصة الحب ، أخفى مشاعره ، وبكتاب الكيمياء كتب بخط منمق دقيق فى أسفل الصفحة : كل يوم خطاب . لن أنسى !

ودعته الأم من النافذة ، وثريا بعد أن حزمت حقيبته الصغيرة تعلقت فى رقبته وقبلته ولم تبكِ كعادتها ، لكنها دخلت الحمام وأغلقت الباب وراحت فى نحيب . خيرية غمزت بعينها ، وقالت بلهجة من يخفى سرا : الجوابات ، لا تقطعها . وإلا أغضبت أمك .

أشار لهم عندما وصل إلى الناصية بيده ، وكاد يصطدم بسوسن التى رأته صدفة . مد يده وسلم عليها . ضغط على يدها الرقيقة وفى غمرة اضطرابها ! قالت له : مع السلامة . وتركت منديلها الحريرى !! قالت أمى ، بعد أن قطعت حديثها لتعد لنا أكواب الشاى : ذهب فى اليوم الثالث من مايو . . وكنت أرى ساعى البريد يأتى بالخطابات والأم تنزل من الطابق الثالث وتدعو الله أن يهب الساعى الصحة والستر فى الدنيا والآخرة . تميل على أذنه تهمس : أصله مهندس كبير قد الدنيا . طول وعرض . ربنا يحميه » .

تصعد بالخطاب ، تفتحه وهى تصعد ، تقبله ، تبص من الشيش تنتظر«البنات » ياه . . أتأخروا قوى . . يا مصبّر قلبى . . سلمه لىّ » .

وفور عودة البنات تجلس على المقعد القطيفة الأزرق بالبروز الفضية ، تسمع كلمات الإبن الغائب ، والدموع تكاد تطفر من عينيها : « ربنا يخليه » .

الذى حدث صبيحة ٥ يونيو ١٩٦٧

حدثنى على يوسف فرو زميل مسعد المجذوب - اسمه الحقيقى مسعد إبراهيم الكامل - ورفيق كتيبة واحدة . قال : جُندت مع مسعد فى نفس اليوم ، وتم توزيعنا من إدارة التجنيد بالزقازيق على إحدى وحدات الجيش المقاتلة فى سيناء ، وقد حصلنا على تدريب مكثف فى مركز تدريب المعادى « أساس ٤ » كما مررنا بفرقة رشاش خفيف بالعامرية قبل أن نلتحق بالكتيبة . وقد تصادف أن ضمتنا نفس الكتيبة ، وشدنى إليه بروحه الشفافة المتفائلة ، وبريق الثقة فى عينيه . كان الوحيد فينا الذى حصل على إجازة ٧٢ ساعة بعد تفوقه فى الرماية على هدف متحرك . وحين دُفعنا إلى « القسيمة » ركب معى نفس السيارة ، وسلمونا الخوذ المموهة ، والرشاش الخفيف ، وخزنات الذخيرة وخراطيش السجائر كهدايا . قدم لى خرطوشته ، قال لى : لا أدخن . سألنى : هل معك طوابع للبريد . ضحكت : حتى لو كان معى . أتعتقد أن خطاباتنا تصل بسهولة إلى الأهل . إربد وجهه فجأة : لكننى وعدتها ! ربت على كتفه " لاتحمل هما . فى إجازات الزملاء يمكن أن ندبر الأمر . تنهد وكأن هما قد انزاح: معك حق !

كان موقعنا على تبة عالية ، نكاد نسمع هدير الدبابات كل ليلة . لم يمض شهر على دخولنا الخدمة . وهانحن نشعر برائحة الخطر . الصحف تصل إلينا وكلها مانشتات حمراء ساخنة . الراديو عالى النبرة . زيارات القادة لاتنقطع فى الثالث من يونيو جاءنا قائد القطاع ، تفقد حقول الألغام ، واطمئن على كفاءة الأسلحة ، وكان بشعره الأشيب وابتسامته الواثقة ، وعصا الأبنوس بمقبضها اللامع يثير فى نفوسنا الطمأنينة . سأله الرائد مختار قائد السرية : هل حانت الساعة ؟

هز القائد رأسه ومسحه بنظره خط الأفق ، وتسمرت عيناه جهة الشرق :

أظن ذلك .كونوا أشداء . الحرب ليست هينة .

قالها وركب سيارته الجيب ، بعجلاتها المطاطية المستديرة ، مضى ، وتركنا ننتظر .

فى المساء جاءنى مسعد ، أمسك بيدى وسألنى : أسمعت الرجل ؟

قلت بهدوء : نعم ، سمعته . وأرى أنها فرصة لنحقق حلمنا بالانتصار !

رد مسعد : إنها الحرب . شىء لم نعرفه . أخشى أن تكون النهاية . أننى أخاف من تلك الحروف الثلاثة . ح . ر . ب . الخوف أن أدفن هنا . ألم تسيطر عليك هذه الفكرة . كان يتحدث بحزن حقيقى . ويكاد يرتج عليه القول . قلت بلا مبالاة : إنها مخاوف طبيعية . لكنها سرعان ماتتبدد مع أول طلقة .

بعد يومين ، فى الصباح الباكر هجمت طائراتهم على مواقعنا ، تطايرت المدافع وألواح الخشب وأشلاء الرجال . كان هجومهم المباغت وصرخات الرفاق شيئا مفزعا ، وجدته يندفع نحوى ويده تتشبث بى . أرأيت القتلى ؟ أشاهدت الدمار ؟ ذقنه مشعثة غير حليقه ، وجهه مصفر ، وأسنانه تصطك . حدقت فى الطائرة تبتعد وتوالى القصف على هدف آخر ، قلت له : إنها الحرب ! وسيكون لنا الرد المناسب .

أمسك بذراعى : أتعتقد ؟ هل نفعل بهم مثلما فعلوا بنا ؟

هزرت رأسى بين الشك واليقين : بالتأكيد !

ضاع صـوته وانفجـارات القذائف تحط علينا كـالمطر ، رأيته يتـشبث برشاشه ويطق منه دفـعات تلو دفعات ، وخوذته تهتـز فوق رأسه . كانت دباباتهم تتقـدم وتطوق المدفع . وأصوات الدانات تهدر . وترتطم بالتـباب الصناعية . وهو لا يهدأ .

قـال لنا قائد الكتـيـبة من خـلال جـهاز اللاسلكى أن الأوامـر أتت بالانـسـحـاب والتجـمع عـند الخط الدفاعى الأول . بـدأ نسف الأجهـزة الثقـيلة ، أخذنا ننتظر سـيارة لتحـملنا إلى خط الدفاع دون جـدوى . قال الرائد مختار : ليتصرف كل منكم بطريقته . إننى حزين لأجلكم .

قلت لمسعد : هيا بنا . لقد نفذ الماء . وسيحيط بنا الأعداء .

سمَّـر وجهه جهـة الشرق ، قال فى حدة : إتركنى . لم أحـضر هنا لأنسحب دعنى وانصرف . كان وجهه أخرسا . وتركته !

كيف وجدوه ؟

ليست هناك دلائل مؤكدة على النحو الذى عـثر به اليهود على المقاتل مسـعد . إلا أنه من المرجح أن القوة التى كُلفت بمحـاصرة وتصفـية الموقع المتقدم بـ « القـسيمة » قد صادفت قـوة نيران مكثفة ، وأن الحصار اسـتمر لعدة ساعات تم فيهـا إسقاط قنابل زمنية من الطائرات ، ولكن إطلاق النار لم يهدأ إلا فى الساعات الأولى من فجـر السادس من يونيو . لقد اندفعت المجنزرات نحو الغرب قاصدة القناة ، وتركت الموقع كجيب صغير للمقاومة يمكن تصفيته .

وقد اعتقـد الأعداء أن بالموقع قوة قُدرت بفصـيلتين من المشاة والمؤكد أنهم ذهلوا حين وجدوه وحيـدا برشاشه دون طلقة واحدة . كـان منكمشا ومن حوله الطلقـات الفارغة . لم ينطق كلمـة واحدة ولم يعثروا مـعه إلا

على زمزمية لا ماء فيـها ، وعلبة صاج بها بعض الفول ، وبعض خطابات بالعربية من فتاة تدعى سوسن ، وسلسلة الصاج وبها بياناته ، والغريب أن مسعد لم يخدش رغم كل القذائف والطلقات .

من تقرير الصليب الأحمر :

جندى : مسعد إبراهيم الكامل

رقـم : ٤٥٦٨٧٢٦

فصيلة الدم : ب

الجنسية : مصرى

تاريخ الأسر : ٦ - ٦ - ١٩٦٧

الحالة المرضـية : شرود مسـتمر ، مع عدم الرغـبة فى الكلام . بكاء متـقطع ليلا . يتـنابه أحيانا قـدر من السرور ينـتهى بصراخ وعويل ثم شرود . لديه رغبة فى الانتقام من الذات .

مشهد مفاجىء :

ظهر السادس من أكـتوبر عام ١٩٧٣ كان يتخـبط فى زحام الشارع . الأطفال ذهبوا إلى مدارسهم وتركـوه وحيدا . قدم له المعلم بسطاوى كوب الشاى بالحليب - كصدقة - وتركه يجلـس على العتبة ، صفق أحد الزبائن وسأل عن الحـساب ، دفعه وانصـرف مشمئـزا . نظر المعلم للزبون المتأنق تأمله فى انكسار : « ده بركة .. لكن الأيام » .

فى الثـانية دوت صـفارات الإنذار أشـبه بالنواح ، أسـرع الناس إلى الملاجىء ، واختـبأوا خلف السـواتر ، لم تأت طائرات ، لكن المذياع ظل يردد مارشاته العسكرية .

فى المساء عـرف رجال الحى أن الحرب قـد نشبت ، وأن الرجـال قد عبـروا . وحـده جلس منكمشـا ، فى عزلتـه الفقـيرة . اقتـرب منه طفل وصاح :« الجيش عبر يا مسعد . » دفع له بالعصا ليرقص ، لكنه ظل على وجومه . « العساكر عبـروا القناة يا با شمهندس » . حدق فى الظلام فقد أطفأت المدينة أنوارها وغرقت فى لجة الترقب والحذر .

جاء إسماعيل الحلاق مـن آخـر الشارع يصـيح :« مسعد .. أنت فين ؟ » .

كان يعرف الحارة برجالها ونسائها وأطفالها ، لكنه لايتكلم . لا ينبس .

تحلق الرجـال « المجذوب » .. راحـوا يـسألـونه : « أتعـرف ممر متلا ؟ .. أليست رمانة فى الشمال ؟ هل عبور القناة سهل ؟ »

ظل صامتا ، وجسده يرتجف ، ووجهه يتلون بكل ألوان الطيف برغم الظلام الدامس أحـسـوا ببكائه . كـان يمد يده ويمسح عن وجنتـيه خـيط الدموع. عندما توغل الليل انصرفوا جمـيعهم إلى بيوتهم وتركوه لأول مرة محتضنا طوار الشارع ، متأملا العتمة.

فى صبـاح اليوم التالى ، تخاطفـوا جرائد الصبـاح ، كانت العناوين الرئيسية تتوهج بالفرحة . أسـرعوا إلى المقهى ، وجدوه نائما على ظهره ، وتحت رأسـه كومـة من القش ، وإلى جـوار أذنه راديـو ترانزسـتـور . حـدثه المعلـم بسـطاوى ضاحـكاً « الأولاد وصـلوا .. نهـارنا أبيـض نـادى يا با شمهندس » .

فى نافذة المنزل البعيد كانت أمه بوجهها الهضيم ونظرتها المنكسرة تبكى فى سرها . وحيدة بعدما تزوجت البنتان ، وسافرت سوسن إلى « بلاد الخليج » مع عريسها . تحسرت على شبابه الضائع ، وحظه العاثر . إلى جانبها صبى فى العاشرة « آخر العنقود » !

رأته ، ودبت يدها على صدرها متألمة :« البرد يا ضنايا » .

أصروا أن يحدثوه ، ويخدشوا شرنقة صمته المستحيلة ، التفوا حوله يضاحكونه ، والأطفال الذين تعطلت مدارسهم لم يقذفوه بالطوب ، بل وقفوا كأن على رؤوسهم الطير يراقبون كبارهم .

غلالة غامضة من السكون لفت الرجال ، ومسعد يقوم من رقدته ، يخطف من أيديهم الصحف ، يقلب الصفحات وجلا .

صاح أحدهم :« ما رأيك . . لن يتركوا بنادقهم إلا مع النصر ؟ » .

فتح فمه ، وتحرك لسانه فى تثاقل ، أشار بيديه أن شيئا هائلا يمنعه ، طفرت الدموع من عينه ، وهو يتأمل ثيابه الرثة ، كأنه يراها لأول مرة . نظر إلى النافذة البعيدة ، كانت أمه . عاد يتصفح الصحف ويحدق فى صور المقاتلين . نطق بصعوبة جملة واحدة :

« أنا . . حاربت » . . « أنا . . حاربت » ثم سقط مغشيا عليه !

ملحوظة هامة لايسكن حارتنا :

حملوه إلى المستشفى القريب ، أخبرهم الطبيب أنه فى طريقه إلى التحسن . عاد إلى منزله . خلع خرقة البالية ، ارتدى قميصا وبنطلونا جديدين . حلق ذقنه الطليقة . افتتح دكانا لبيع الكتب القديمة . بعد ثلاثة أعوام من حرب أكتوبر تزوج بنتا من قرية « الشعراء » أنجب ولدين . صار له أصدقاء . إلا أنه ظل صامتاً حتى كتابة هذه السطور !

القــارب

عندما أمسكت الخـالة مباركة فنجان القهوة لتـقرأ لى الطالع، حدقت فى الشرخ الذى كان يضفى على الخزف الضارب إلى الصفرة ملمحا من القدم .

قالت وهى ترسم بأصابعها الدقيقـة فى الهواء خطوطاً وهمية تتشابك وتتقاطع : أمـامك طـريق صـعب كله عوائق ، لكنك سـتجتازه . ضحك صديق لكلمـاتها ضحكةباهتة ، قـال لها وهو ينظر من الطاقة إلى البـحيرة الممتـدة أمـامه بقواربها المتناثرة فى فوضى محببة : دائما تذكرين هذا الطريق .

سكت قبل أن يكمل . كان يحس شعـورا بالضيق يتزايد . خرج إلى حوش الدار .

كانت البحيرة على بعـد خطوات :جماعات من الأوز راحت تعوم ، وتغمر رأسها فى الماء للحظات ثم ترفعها فى تتابع . .

كان الطفل حميدو ينظر إلى هذه الحركات ، ويصفق بيديه ، ثم يقوم بوضع رأسه فى الماء ، ينتفض فجأة ويسعل بشدة .

أشار له صديق أن يكف عن هـذا الفعل إلا أنه عاود لعبتـه . اقترب منه وجذبه من يده . أبعده عن الماء . نظر إليه الطفل فى غضب مصطنع ، قال له : إننى أبحث عن نقود وقعت منى بالأمس هنا !

وأشار بسبابته إلى ماء البحيـرة ، بينما كانت زوارق الصيد على البعد تأتى مسرعـة ، المدارى وأذرع الرجال العارية ، والشبك المفـرود على ظهر الزوراق ، والفرح تلتمع به الأعين ، والأطفال تقـذفهم منازلهم من جوفها بأكياسهم الخالية فى انتظار الرزق .

كان الصرير الخافت يعلو شيئا فشيئا بينما النورس يرسم أقواسا وهمية بجسده فوق الموكب الآتى . ألقوا المراسى ، الشباك والسمك ، آمال اليوم ورزقه .

- أهلا صديق . متى وصلت ؟

- بالأمس فقط .

- حمد ا لله على سلامتك . كنا نود أن تسرح معنا .

- ومتى تذهبون للصيد مرة أخرى ؟

غداً إن شاء الله . فى الفجر سوف نقلع .

- لقد انتظرناك طويلا . والدك قال أن موعد إجازتك قد اقترب .

- أين هو ؟

- فى الزورق القادم . أنت تعلم أنه يتعب كثيرا ، فهو يعمل بمفرده . وعندما يجر بالمدواة فإنه يلحق بنا بصعوبة . .

خلع صديق جلبابه المكوى ورمى به على الحشائش الخضراء النابتة على الشاطئ ؟

راح يخوض بصدره العارى مياه البحيرة . اقترب من الزورق ، صاح فى فرح : أبى . . أبى !

تهدج صوت الأب وهو يصيح : من . . ابنى صديق . . ابنى ؟

تعلق بالزورق ، صعد ، عانقه فى حرارة ، جذب المدراة من يده. تشبث بها الأب وارتجافه البهجة بالابن . قال أنه مازال قادرا على العمل . رجاه صديق أن يترك المدراة ليصل بالزورق إلى الشاطئ . جلس على الحافة ، تركه يفعل ، تنهد .

كان الرجـال يرقبون المشهـد فى مشاعـر متضاربة من الأسى والفـخر والدهشة ، وعندما راحت أغواء البردى تعوق مقدمة الزورق ، وضع الأب يده فوق يد الابن ، تنتـزع النباتات الطافيـة ، ثم بدأت الضربات تنتظم : طاش . . طاش . . طاش !

وصل الزورق إلى الشاطىء . سأل الأب : مامدة إجازتك ؟

أجاب : ست أيام . سوف تستريح فيها لأذهب إلى البحيرة بدلا منك .

تنفس الأب فى ارتياح ، وقد تندت عيناه بالدموع : رجل ابن رجل .

على عتبة الدار كانت الأم تقف قلقة تنتظر العودة .

* * *

هبـط المسـاء على المقـهى سريـعا . كـان الرجـال يتجـاذبون أطراف الحديث ، بينما البحـيرة تبدو ساكنة وقد هجرها جـماعات الأوز ، وطيور النورس راحت تبيت بـين أفرع الأشجار الـقريبة . حـتى الزوارق ترقد فى استسلام على الشاطئ المتعرج .

قال عم نويصر هو يشـير إلى نجم فى السماء يعرفونـه جيدا : سوف ترهقنا عواصف الغد !

رد الأب : ستغلب عليها مهما كانت عاتية:

جـاءت أكواب الشـاى الساخن ، ورحب صـاحب المقهى بصـديق : أهلا وسهلا . . يقولون أن الجبهة تغط فى سباتة عميق .

ضحك صـديق وهز رأسه فى نفى ثـم رد قائلا : بالطبع لن أخـبرك بالتفصيلات . لكن أستطيع أن أزعم بأننا على أهبة الاستعداد للحرب.

قال محروس مشيحا بيده : نسمع هذه الكلمات منذ سنوات .

رد صديق :يوم تتكلم البندقية ستخرص كل الألسنة .

كانت النجمة التى أشار لها عم نويصر تتوهج على غير العادة . وكان الليل قاسياً !

* * *

كان سوق الأحد يكتظ بالبائعين والمشترين الذين أتوا من القرية التى يسكنها صديق والقرى المجاورة . وقع نظر صديق عليها . فى الزحام تاهت منه . راوغته والأقدام تثير عنادا ، لقد انتظر هذا اليوم طويلا . لابد أن يلتقى بها : هند ، حبيبته . . التى قرأ فاتحتها منذ أسابيع . وأصر أبوها على ألا يلتقيان إلا بعد انتهاء صديق من فترة تجنيده . بعدها يتم عقد القرآن .

كم حاول أن يقنعه أن الدنيا قد تغيرت . وأن عليه أن يساير العصر ، ويسمح له بالخروج مع خطيبته . إنهم فى المدن يفعلون أكثر من هذا . لكنه رفض الخوض فى الموضوع ، رفع يده معترضا : بناتنا شىء ، والبندر شىء . عندما تتزوجها افعل بها ما شئت !

لقد انتظر هذا اليوم طويلا . وهو لن يسمح لنفسه أن يراها ولايحدثها .

إذن كيف يلقاها والزحام يمنعه من رؤيتها ؟ هداه تفكيره أن ينتظرها فى الطريق .

كانت الشمس فى مثل هذا الوقت حارقة . جلس فى ظل شجرة كافور ضخمة ينتظر .

مـرت سـاعة . بدأ القلق يسـاوره . وسـرعان مـا رآها قادمـة على الطريق . تركها تمر أمامه . لم تره . مـضى خلفها . صوته المرتجف خرج بصعـوبة : صبـاح الخير ياهند . . نـظرت خلفها ، اصطنـعت الدهشة ، لكنها كانت تعـلم أنه بالبلدة منذ يومين ، اصطبغ وجهها بحـمرة الخجل : صباح الخير . . يا صديق !

- أين كنت ؟

- فى السوق .

- ماذا اشتريت ؟

- بعض الأقمشة ، وزجاجة عطر لأمى . . و . .

- لكنك للمرة الأولى تخرجين بمفردك ؟

- لقد ذهب أخى محمود مع أبى إلى البندر .

- اننى أنتظرت هذا اليوم طويلا ياهند .

- . . . .

- هل تعرفين ماذا أريد أن أقول لك ؟

- لا أعرف .

- أحبك .

-- عيب هذا يا صديق . أمى تقول أن الحب عيب .

- ستصبحين زوجتى ، وسوف يكون لنا منزلا جميلا ، وطفلا وطفلة. ضحكت ضحكة سريعة ، قالت أمه : أتعرف أننى أحيك لك صديريا دون علم أحد ؟

- ومتى تنتهين منه ؟

- عندما تأتى الإجازة القادمة .

- أنت أعز إنسان لدى .

- وأنت :

أراد أن يحتضنها ، يقبلها ، يحتوى وجهها الملائكى . لكنه لم يفعل . سلم عليها وظل يرقبها وهى تمضى للقرية .

* * *

عندما أخذت الشمس تداعب سعف النخيل المترب ، ساحبة أشعتها الدافئة ، عاد صديق إلى المترل . قابلته أمه على الباب : هناك من ينتظرك بالداخل .

صافحه ، رجل نحيف ذو وجه صارم . أخبره أنه من « المركز » قدم له ورقة مطوية ومختومة بخاتم أسود مستدير يعرفه جيدا . طلب منه أن يوقع بالاستلام . خرج فى عجالة . فتح الورقة ، قرأ : « عريف صديق أبو سالم . اقطع إجازتك . احضر الكتيبة فوراً » .

التقت عيناه بعينى الأب . نظر إلى ساعديه المعروقين . لوجه أمه . احتواه في نظرة طويلة . طاف خياله بالبحيرة : زوارق ، جزر ، مكامن ، أصحاب . قال فى همس : سأرجع الكتيبة الآن !

* * *

- فليأخذ كل مكانه .

هاهو القارب الذى حلم بركوبه طويلا . سترة الفلين وشدة الميدان . خوذته وسلاحه .

الضربات المنتظمة ، وشمس الظهيرة : طاش .. طاش .. طاش :

البلدة ، مأذنتها الشامخة ، البيوت الطينية المغطاة بشباك الصيد . الأب الكهل ، واليد المعروقة ، نظرات الأم الحنونة ، هاهى تحسب الأيام على أصابعها . وتنظر إلى القمر حيث يستدير فى فرحة . وإلى الكتاكيت حيث تحمر أعرافها ، وتصبح فى خفوت : كو .. كو .. كو . بحة خفيفة تعترى الصوت ، تضيع عندما يتبدل الزغب ريشا .

حميدو الصغير . رأسه المبلل بالماء ، صنارته الغاب ، وصندله الممزق .

هند، خطيبته ، تطرز الصديرى الأسود كى يرتديه عندما يعود .

- انتبهوا .. اقتربنا من الشاطىء .

الأقدام تلمس المنحدر الرملى . العلم الذى غرسوه فى أعلى التبة ، انتزعه حين عاد من إجازته من أعلى صارى زورقه . كتب عليه اسم بلدته وغمسه فى ماء البحيرة . الأيدى التى أمسكت بالمدراة هى التى تمسك بالبندقية .

- هيا .. لنحاصر النقطة الحصينة .

* * *

بعد ساعات قليلة سقطت النقطة القوية للعدو فى أيديهم . تقدموا فى العمق . كان الليل قد أتى . كتلة متوهجة من النار والضوء والصرخات والشظايا . تستبيح الفضاء ، وتغترف الأرض . أخبرتهم جماعة الاستطلاع أن قوات العدو المدرعة تتجمع فى الخلف للقيام بهجوم مضاد . كان عليهم أن ينصبوا له عدة كمائن فى الاتجاهات المحتمل التقدم نحوها .

كان صديق أحد أفراد المجموعة الرابعة . بدأوا فى تجهيز الموقع . قبعوا فى انتظار أى تحرك للعدو . الأنفاس مكتومة والمدق القريب ينتظر قدومهم . دقائق كأنها دهر . بمرارة سنوات الانتظار ، وأتت دباباتهم « الباتون » يسبقها الغبار والضجيج . انتظروا حتى دخلت مرمى أسلحتهم المؤثرة . . وبدأت القذائف تخترق الصمت ، ودروعهم الفولاذية تتهاوى ، وتتحول إلى كتل من الجحيم .

– عظيم يا صديق . أصبت دبابة المقدمة .

كانت الإصابة أسفل البرج ، بينما حطم درويش بقذيفته جنزير الدبابة الخلفية . أصبحت دباباتهم صيدا سهلا للقذائف . قفز أفراد الأطقم فارين . حاولوا الاشتباك معهم بأسلحتهم الشخصية .

أمر الملازم حمدى قائد المجموعة : ليتقدم مختار وصديق ويسرى ومحمود لأسر الأطقم الهاربة . ليبق درويش وأحمد للتغطية . سأقود الهجوم معكم . . تقدموا .

قذف أحدهم قنبلة يدوية على الموقع ، أصابت الشظايا صدر صديق . زحف مختار ويسرى ومحمود تجاه الفارين . تمكنوا من الإحاطة بهم .

حاصرهم رشاش يسرى الخفيف . كان صديق ينزف دماً قانياً .

الإصابة خطرة . وقذائف الهاون تمطر « أقوالهم » الخلفية على الموقع الجيرى . نطق بصعوبة وهو يرتجف : اتركونى . . الله . . معكم . .

لم يكن هناك وقت للبكاء ، القلب وحده يرتجف . الجنود يحاولون الهرب . تصنع البنادق الآلية ورشاش يسرى دائرة من جهنم .

يرفع أحدهم يداه مستسلما . يده تنزف . يبكى فى عصبية زائدة . الملازم حمدى يرفع صوته : لاداعى للمقاومة :

فوق الرمال جسده يهتز وصوته الأليف يجتاح الموقع : أمى . . أبى . . حميدو . . هند

- لا تتكلم . . أنت تنزف .

- بلدتى . . المقهى . . أصحابى .

- ستعود لكل شىء . ها هى الأرض نستعيدها .

- والبحيرة ؟

- أي بحيرة ؟

لم يجد للسؤال أى رد . أرتشعت الكلمات على شفتيه . قال الملازم حمدى : لقد أدى واجبه .

وعندما جاءت لحظة مواراته التراب ، اكتشفنا أن صديقا يقبض على حفنة من رمل سيناء الطاهر !

* * *



رائحة بارود قديم

مضى يوم الاستجمام بالدبية وتفرغت تماما للمهمة . كانت خطتنا محكمة غاية الإحكام ، فلا مجال لثغرة واحدة يمكن أن تودى بطموحتنا . أعددنا الأمر بدقة متناهية . قال مصطفى : إنها فرصة العمر . أضاف عبد الرازق : لو تحققت الأمنية لطردنا الفقر إلى غير رجعة ! أغضبنى الشرقاوى الذى أرهقنى مع ارتجاج السيارة خلال عبورها الكوبرى المعدنى المطلى بالرمادى ثم مرورها بمساحات الخضرة الرائقة بحكاياته التى تمجد ذلك الحاكم بشاربه الكث الذى يتعبنى أن يبتسم دائما فى صوره الملونه على أغلفة المجلات بلا سبب قال يفحمنى : أنه يدخل أى منزل يقابله ، وخبط الباب بأصابعه ، ثم يتجه إلى الثلاجة ، ويتناول عنقودا من العنب أو مشروبا باردا ثم يجلس فى صحن الدار بكل تواضع ! قلت له أن ذلك لايعجبنى ، وأننى لو كنت صاحب البيت لما فرحت بتلك الزيارة ؛ لأننى لا أقبل أن يدخل منزلى غريب بلا سبب ثم يفتح ثلاجتى دون إرادتى ويعبث بمأكولاتى ! أوقف مصطفى السيارة لإصلاح « الشكمان » . كانت مساحات الأخضر المعشوشب تمتد إلى خط الأفق حيث الزرقة القانية .

نظرت إلى الأشجار التى بدت زاهية ومصفوفة ، ثم حملقت فى ساعتى وتنهدت بعمق .

جاء من خلفى وإصراره العنيف على اقناعى بوجهة نظره يطاردنى . بدد هدوئى ، فاستسلمت لحديثه بينما رأسى يدور وعقلى يهوم فى اللاشىء . كان يتبعنى إلى منحدر جانبى حيث زير الفخار يعلوه غطاء خشبى وأعلاه كوز من الصفيح . شربت ، وتفصد وجهى بالعرق قبل أن أنتهى من تجرع كوب آخر .

شربت ونبـرات صوته تذبحنى : لقـد قابل عجـوزا بُهت عندما رأى الزى العسكرى والنياشين الموشاة بخيوط الذهب . أسـرع بتقبيل كتفه على عادة أهل تلك البلاد . فماذا منحه ؟

نظر لى ، وتبينتُ أن مـرارة الأيام الفائتة قـد توغلت فى صدرى فلم أفتح فمى بكلمة تابع حديثه بافتراض أننى سألت بالضرورة : ماذا منحه ؟

ابتسامته كشفت عن سنة ذهبية فى مقدمة الفك الأسفل : منحه معاشا كبيرا ، وأمر بتجهيز بناته الثلاثة .

قلت : والذين لم يـقابلـهم كـيف يدبرون جـهـاز بناتهم . الأرائك والمفروشات والثياب والطسوت ؟

لم يرد ورمـقنى بنظرة عدائيـة . ركبنا السـيارة بعـد أن انتهى صـبى الميكانيكى من عمله .

كنا - نحن الخمـسة - نحلم بتحقـيق حلمنا ، وأيدينا تعبث بالأوراق الممهورة بإمـضاءات كبار المديرين وأختام سـوداء من كل نوع ، والتصديق النهائى موثقـا من وزارة الخارجيةوالطابع الأزرق الصغيـر الذى يتجاوز ثمنه الجنيهات العشر .

محل أثاث قديم فيه أطقم الأرابيسك شاهدته أول أمس فى حى الدقى وأنا أدب بخطواتى مـعفراً ممرورا . وقـفت أتفحص قطع الصـدف العتيـقة بينمـا رائحة القدم تغـزونى . كنت راجعـا من مكتب التوثيق الـرئيسى ، والأمل يداعبنى فى عقد العمل المجزى .

قال المغلاوى وجسده الصغير يزاحمنا فى المقعد الخلفى : يجب أن ندخل القاهرة قبل أن يحل الظلام : قالت زوجتى وهى تعد الحقيبة : أن الدبية شاطىء مهجور ، وأن المصطافين قد زاحموا الصيادين حين أتوا إلى هذا المكان .

رمقتنى بأسى : لكن قناديل البحر تفرز سمومها فيطفح الجلد ببقع حمراء . وأن المراهم لاتعالج التقرحات بل تزيدها تهيجا .

كنا قد عدنا لتونا من الشاطئ . قالت لى وهى تربت على كتفى : لاتسافر . دعنا نستمتع بالحياة بين أهلنا .

قال الحصرى على المقهى وهو يحذرنى : لقد فقدت أسنانى هناك ،وضاعت روح الشعر منى . فى أحيان كثيرة أجلس بين أوراقى باحثا عن معنى فتخرج الكلمات باردة ميتة ، أتعرف أننى أغلق الباب علىّ وأبكى !

قلت : إن الأمر ليس بيدى . وأن الأولاد قد أتوا ، وعلىّ أن أؤمن مستقبلهم .

هزنى الحصرى من كتفى ، وغمرنى بدفء مفتقد ، راوغتنى نظرته المهزومة . قالت لى والسيارات تمرق على الطريق الأسفلتى المترب ، بينما اللافتات البراقة تعلن عن رحلات العمرة السياحية :

إن تلك البلاد خيمة كبيرة من جهنم ، لها أوتاد من نار .

قلت لنفسى وأنا أقلب الأمر فى عقلى : الودائع المغلقة ، وحقائب السمسونيت المحشوة بالدولارات ، الخلاطات الكهربية ، والساعات الالكترونية وقمصان الحرير الطبيعى !

اختلجت شـفتاه بكلمـات هامسة ، وكـأن قلبه الذى لم أره ينزف : غررت بنا النقود وعدنا بشر بلا مشاعر . ألا تصدقنى ؟

« ألا تصدقنى » تلك العبارة التى لها رائحـة البارود . من كان يقولها أيام الجندية أنحنى لأنقب فى الذاكرة عن صاحبها فـيبتسم فى وجهى سعد الزميتى بعد أن تصالحنا :

أنا من عائلة باشاوات . ألا تصدقنى ؟

خلع الحصرى ساعـته الجديدة ، قدمها لى هدية . كـان قد احتضننى عندما قابلنى أول مرة بعد سـفره الطويل . قال لى فى المنعطف أنه اكتشف جهازا لحل كل المشاكل .

وأن على ألا أسافر لأن هذا الجهاز سيدبر أمرى ؟

كدت أفقد تماسكى . خشيـت أن أصدم مشاعره . وطأة الأعوام التى مرت منذ اختفى . كـانت ثيابه مهندمة وأنيقة . يتحـدث كإنسان أثرى بعد عـوز . . أتى بالأمـوال ودفـتـر الشيكات قلـت له بأسى ، ونبرات حـزن تجتاحنى : لا بأس أن تعرض نفسك على طبيب نفسى .

كانت نظراته قلقة ومتوجسة . هز رأسه : أشعر أن شيئا فى عقلى قد شاخ . لـكن الجهـاز حـقـيقـة لامـراء فيـها . طلب من الجـرسون فطـيرا وشطائر لحم .

اقـتربنا من شـبرا ، وبدا الزحـام لعـينا . هبط الظلام رويدا رويدا ، ففتحنا نوافذ العربة ، ونظرنا للنيـون وأضواء المحلات . عبرت امرأة تركت من خلفها عطرا كتم أنفاسنا .

قال مـصـطفى : سنصـل فى الموعد المناسب . سنـعاين المكان بكل دقة . وسنوقف العـربة فى الموقع الملائم . لكن علينا أن نكون فى المقـدمة مهما كان الثمن .

تحسـسنا مظاريفنا فى لحظة واحـدة ، وتأكدنا أن الأوراق جـاهزة مرة أخيرة . فى الدبية جلست زوجتى تحت المظلة ، وخلع الأولاد ملابسهم ، وأحاطوا أعناقـهم بإطارات المطاط . شع وجهها بالفـرح ، وضغطت على يدى بامتنان : احرص عليهم . لاتدعهم يغيبوا عن نظرك .

كان وجهها جـميلا وصبيا ، والبهجة تكاد تطفـر من عينيها وهى تمد يدها بالجاروفات والدلو البلاستيك .

سبحت على ظهـرى ، وأغمضت عينىّ ، وانصـبت فى رأسى فجأة همهـمات غامضـة لتلك الأيام البعيدة حـيث كانت الدبية منطقـة عسكرية قضيت فيها أيام الخـدمة الأولى رأيت وأنا قادم على الطريق الساحلى الذى أعرفـه جيـدا مئات الحـفر ، وعـوائق الدبابات الحديدية ومـلاجىء الأفراد والذخيرة كلها بانت مهجورة .

خفت أن أفسد عليـها بهجة هذا الصباح وأرهقهـا بحكاياتى الأسيانة عن رفاق الـ م . ط الذين تصدت صـدورهم لدبابات « السنتوريون » حين عبرنا فى السابع من أكتوبر .

كانت أصـواتهم المبحوحة تحـيطنى وأنا أخبط بذراعى الماء . وأولادى الثلاث يلهون ، ويرشـون الماء على وجوه بعضهم البـعض . نداءات فزعة وصرخات متحمسة مـغموسة فى البارود تأتى واهنة ، والهواء يمر راعشا ، بينما طيور النورس البـيضاء قليلة ولها صوت حـزين . أحيانا يدور نورس

وحيد محلقا فوق رؤوسنا ثم يحط فجأة على صفحة الماء ليلتهم سمكة صغيرة تبرق زعانفها وقشورها الفضية فى الشمس بوميض يخطف الأبصار .

تقول أنه مكان للصيادين . ألم تر حديد المواقع المهجورة ، وفوارغ الطلقات النحاسية التى علاها الصدأ ، وتلك الملاجىء التى انطمرت فتحاتها وباتت تأوى الكلاب الهزيلة والسحالى وحشرات زاحفة من كل نوع ؟

حين صدرت أوامر الصاغ عبد الحى المليجى أخلينا هذا الموقع وسرنا فى القول مع نداوة الصباح . كانت الأنساق الأولى قد تقدمت . طيلة الليل وبوارج العدو تضرب الشاطىء الذى تركناه خلفنا لسرايا أخرى ، وتقدمنا لتعزيز الهجوم من ناحية بورسعيد . لمحنى الصاغ وهتف بى : أخيرا يابطل رفعت قبضتى :أخيرا !

فى اندفاعنا المفاجىء نحو المدق الأسفلتى جاءت إشارة لاسلكية من مخابرات الفرقة تحذر من طلعة طيران معادية . انتشرنا داخل حفر برميلية جهزناها على عجل . قبل أن ننتهى من الحفر جاءت طائرات الفانتوم تدك المواقع التى غادرناها . ثم جاءت طائرت أخرى وحلقت على ارتفاع منخفض وحصدت بطلقات الفيكرز مؤخرة القول المتحرك . استدار طاقمنا وصوب طلقاته من الحركة ليوقع بمقاتلة إسرائيلية هوت فى اللجنة الزرقاء فأزعجت النوارس التى طارت متحيرة .

سقطت قنبلة مباشرة على الطريق فعجنت جسد ماهر الطناحى بالأرض . أما يسرى فقد أطاحت بساقه شظية . أمسك بها وهو ينزف . زحف باكيا مولولا : ساقى . . ساقى .

أسرعت عربة الخدمة الطبية المموهة به إلى المستشفى ولم يعد بعدها . عرفنا أنه فى الطريق نزف الكثير من دمه وكان مازال يصرخ : ساقى . . ساقى . وآخر ماطلبه رشفة ماء من زمزمية السائق . بعدها عبرنا الكوبرى ودفعنى الصاغ مع الزميتى فى مهمة سرية لاستطلاع اللواء كنا نعمل كمفارز غير مجهزين سوى بأسلحتنا الشخصية وجهاز لاسلكى . أشار لنا أن نتم مهمتنا بمنتهى الحذر ودفع لنا بخريطة تفصيلية للمنطقة وتجهيزات إضاءة للطوارىء .

أشارت لى أن أرجع . كان تيار الماء يجرفنى إلى قلب البحر .لكن الأمواج بدت هادئة ، واستبدت بى الرغبة لأبكى . لم أعرف لذلك سببا . لوّح لى الأولاد ببهجة أن أعود لأشاركهم « البلبطة » . عدت منهكاً . قالت لى : مابالك ؟ وجهك ممتقع . قلت لها أخفى ذكرياتى : لعله التفكير فى السفر . لا أعرف كيف أترككم ؟

قالت لى بنبرة فيها لوم : ألم أقل لك . كيف تتركنا ياثروت .

أخرج عبد الرازق رقعة الكرتون وقرأ بصعوبة عنوان السفارة . قاد مصطفى العربة إلى المكان بنرفزة . كانت أبواق السيارات تعصف بأعصابنا . المهمة محددة ولن نرجع قبل أن نتمها . بدت سيارتنا قديمة ، ومتهالكة وسط طوفان السيارات الفارهة التى تلمع تحت أضواء النيران ، وانعكاسات مصابيح الصوديوم . اقتربنا من ميدان الحجاز ، كانت العتمة قد هبطت تماما لتحوط الناس والسيارات وحوانيت السوبر ماركت . شعرت بضآلتى والبنايات العالية تواجهنى بغطرستها ، والبنات الفارعات المشوقات يعبرن الطريق فى زهو . والمغلاوى منزو إلى جوارى كفأر يقرض أوراق سفره المقترح . أما رضوان فقد كان يخرج رأسه ليسب الليل والسيارات كمحموم يصيح بالمارة كلما صفعوه بنعومتهم وملابسهم المهندمة : نحن نمل !

قال الشرقاوى أن الناس فى تلك الدولة التى سنذهب إليها لايتشاتمون ولايتشاجرون ، بل هم فى جلاليبهم البيضاء النظيفة يسيرون بغاية الأدب فى صمت . وإذا أطلقت رصاصة فأردت أحدهم قتيلا ساروا فى طريقهم دون أن يلتفتوا حولهم .

قلت متشفيا : أحسن ! . حين أشعل مصطفى عود الثقاب اقتربنا من الشرطى وسألناه عن المكان . أشار بيده فى الاتجاه المعاكس . كانت اللوارى الضخمة تتوارى فى المنحنيات ، ومن فتحات السلك تطل خوذ مموهة بينما العسكر منكبون فى أحاديث خافتة .

عبرنا فى حرص الميدان ثم اتجهنا نحو البوابة الحديدية الضخمة ، نزلنا من السيارة ، وأشعلنا عود ثقاب لنتأكد من كوننا فى المكان الصحيح . بدت قطعة النحاس لامعة ومصقولة ، ورمز السلطنة واضح تماماً تأكدنا أنه المكان حين لفت أنظارنا أجساد الرجال النائمين منطرحة على امتداد السور . بعضها ملتف بأوراق الصحف ، وبعضها يتوسد حقيبته ، وآخرين بلا غطاء .

غمزت لمصطفى أن فرصتنا سانحة لأننا لن نشعر بالإرهاق حيث أتينا فى الوقت المناسب وستكون معنا الأغطية التى جلبناها معنا وهى تكفى تماما .

قال المغلاوى وهو يرتمى بكل جسده فى المقعد الخلفى : علينا أن نحضر طعاما ثم نعود لنحتل أقرب مكان من البوابة .

كانت الشوارع الجانبية معتمة ، وبدت البيوت كأشباح يهيمن عليها العبوس والكآبة . النوافذ ذاتها لا تعطى الضوء .

اعتذر رضوان لأنه لم يحضر وسادة فأشار عليه مصطفى أن يشاركه وسادته وصاح فينا : سأحضر لكم خبزاً وقطع من الجبن .. مارأيكم فى بطيخة ؟

وافقنا جميعا أما رضوان فقد اقترح أن نشترى كيلو جرامين من المانجو ! لطمه مصطفى فى مرح : يامحروم . عندما تذهب هناك وتمسك بيدك الدنانير . اشتر الوكالة نفسها .

ركبنا السيارة وأغلقنا الأبواب بقوة دون قصد . على صوت الارتطام صحا بعض النائمين فى فزع ، حركوا رموشهم فى صعوبة ولما اطمئنوا أن الوقت مازال ليلا أغمضوا عيونهم وعاودوا النوم .

انطلقنا بالسيارة نبحث عن طعام . كنا نغوص فى المقاعد المتهالكة بكل تلذذ وكأننا امتلكنا الدنيا ، ويد مصطفى تضغط على النفير فنشعر بأننا مختلفون . على الأقل معنا وسائد وأغطية ! على الطوار المواجه للسفارة بدت أشجار النخيل سامقة وشامخة . منزل وحيد ذو شرفات واسعة ظهر على البعد ، وفتاة جميلة تعقص شعرها بفيونكة حمراء ، كشفها الضوء وصوت موسيقى رقيقة انسابت فى نعومة وهى ترقص . دققت النظر كانت مصرية التقاطيع .

وقفنا كالبلهاء نتفرج بعد أن أوقف مصطفى السيارة . حرصنا جميعا على أن نمتع أبصارنا ونسرق تلك المتعة دون صوت . انتبهت فجأة لوجودنا . لوحت بيدها فرحة ثم اندفعت إلى داخل الشقة . بدت الفرندة موحشة بدونها .

تركنا السيارة ولوح عبد الرازق بيده متضايقاً : هل سنترك كل هذا الجمال ونذهب للصحراء ؟

هزه مصطفى حانقاً :أقرع ونزهى !

قال الشرقاوى : إن الدولار هو سيد الموقف وقيمته فى ازدياد ، وأنه قد اشترى أرضا ، وبنى منزلا من عمله بالخارج خلال ست سنوات . وأنه

يسعى لعمل عقد جديد ليكمل السباكة نظر بعضنا إلى بعض فى حسرة وضيق ، أما نظرته فقد بان فيها التوجس .

كانت كلاب كثيرة تقابلنا ،وكلما رأتنا نبحت وعكرت صفو الهدوء . ذلك الهدوء البارد الذى لا يحمل طعما !

هل كان بيدى أن أنقذه حين هوى برج المراقبة بأسياخه الحديدية وخلع عظم الترقوة ؟

كنت أرى القذيفة وكأن لسانى قُطع . أشرت له بيدى أن ينطرح أرضنا . أنا نفسى وقفت كالعصا . حين انفجرت القنبلة شظايا وسقط العمود ليخلع كتفه صرخت صرخة مروعة سمعها كل من فى الموقع ، أسرعوا لينقذوه . لكن نظرته الملتاعة كانت تلومنى . وقفت أخمش وجهى بأظفارى . قال الصاغ عبد الحى لأهدأ :لاعليك . قدر مكتوب . الموت يختار صاحبه . ماذا كان بمقدورك أن تفعل له ؟

فى الثامن من أكتوبر وبعد يوم من عبور سريتنا القناة كان بمقدور سعد الزميتى أن يفعل مالم أفعل . حين سقطت قنبلة ألف رطل وغاصت فى الأرض الرملية ولم تنفجر ردمت ملجأ الذخيرة . حاولت أن أوسع لنفسى طريقا . كانت ألواح الصاج وعروق الخشب متشابكة ، وكنت التقط أنفاسى بصعوبة . صرخ الصاغ عبد الحى أن يبتعد العساكر جميعهم عن الموقع ، فهناك احتمال كبير أن تنفجر القنبلة فى أى لحظة .

وحده اشتعل رغبة فى أن ينقذنى . لم يكن صديقى . كنا خصمين لدودين كان يضيق علىّ فى تصاريح الإجازات لأنه فى مكتب الأفراد . وكنت أعايره بأن طلقاته فى الرماية طائشة .

في ذلك اليوم الذى تشاجرنا فيه ، ولطمنى على وجهى ، وأدميت بقبضتى أنفه ساقنا الصول رفعت مكتب مذنبين . كان أخميمى الملامح له ضراوة الصوان ورأسه مليئة بالعناد .

مد يده فخلع كابه ومددت يدى ، صدرت الأوامر بحبسنا أسبوعين بعد أن خلعنا القايش والبيادة وحلقنا شعر الرأس « زيرو » . بعدها لم ينظر أحد منا فى وجه الآخر إلا ليضحك . قصوا شعر الحواجب والشارب ، لقد صرنا أصدقاء وقدم لى سجائره .

لكنه أتى فى اللحظة الفاصلة التى تسبق الموت كالحلم الخاطف شعرت بطائر أسود ينتقض ليمزق قلبى وكانت رؤيا من نار حين تحركت شفتاى لتنطق الشهادتين . أغمضت عينى ولـلحظة سمعت نبشا آتيا من أعلى . ضربت بقبضتى ، صرختى مكتومة أنا هنا . . أنا . .

زاد النبش وابتلعت رملا وبارودا محترقا . فجأة أحسست بهواء طازج يندفع من فرجة ضيقة تعلو رأسى . أعدت صراخى ، فوسع الفتحة ومد يديه ينتشلنى من بين فوضى الأعمدة الخشبية وقطع الصاج وبقايا الجراكن المنصهرة . ضحكة الأخميمى كالأبنوس . نظرت نحوه بامتنان . .

اشترينا الخبز وقطع الجبن وابتعنا بطيخة على السكين ، وحملنا كل ذلك فى أكياس النايلون ثم اتجهنا بالسيارة إلى المبنى حيث الساحة الواسعة ، أوقفناها بجوار السور مباشرة وعلى مقربة من البوابة الحديدية . تناولنا طعام العشاء ، وجاء مصطفى « بالترموس » وصب لنا شايا ساخنا جهزته أم العيال قبل السفر . تأملت البخار يتصاعد بزهو رغم العتمة التى لفت الأجساد المتراصة بجوار السور .

تأملت ساعـتي ، ونصيحـة الحصرى توخـزنى ، وحديثه عن الجـهاز الذى يحل كل المتاعب يبدد أمنى.

سحب مصطفى غـطاء السيارة السميك ، وفـرحنا ونحن نبسطه على الأرض بجوار البـوابة مبـاشرة . ثم أحـضرنا الوسائد وحـاولنا النوم : أنا ومصطفى وعبد الرازق بينما فضل رضوان والشرقاوى أن يناما داخل العربة .

أخذتنا سنة من النـوم ، ولمحتها بثـوب الشيفـون الأحمر الشـفاف ، وبشفتيـها المكتنزتين بطلاء الروج تشير لى . أعطيتـها ظهرى ، لكن غلقت الأبواب وقالت بنعومة : هيت لك : قلت لهـا أن الأعداء قد ضربوا الديبة بالصواريخ وأن الرمـال نفسها تفـحمت وأن الوقت لايصلح للنوم . مطت شفتيـها فى أمتعاض :أبتر . كانت قـاسية الملامح بصقت على الأرض : خذوه . سددوا فوهات البنادق نحو صدرى . وخذتنى برودة الصلب فصرخت .

فتحت عينى وشعرت بالصباح على وشك أن يشقشق ، والمكان امتلأ بالبـشر ، ولكن غـبش الفجـر الرمادى لا يبين الوجـوه . .أصطدمت يدى بالأجسـاد من حولى تشاركنى الفـرش . كانت لرجال مـتعبين ، بعـضهم يصدر شـخيراً مزعـجاً ، وآخرين يتـقلبون فى أنين خافت . امـتدت يدى تسحب الوسادة التى شـاركنى فيها شخص لا أعـرفه . كان يرتدى بنطلونا غـامقـا وقميصـا فاتحا . لاحظت بطرف عـينى ملامحه . تأملت غـضون وجهه ، وشاربه الخفيف ، و« حسنة » تعلو أنفه .

تقلب متوجعاً :شاركتك الوسادة دون قصد . ألا تصدقنى ؟

كان يقولها بألم حقيقى ومفاصله تطقطق من التعب . يده فقط كانت تقبض بقوة عـلى مظروفه الأصفر . حاولت أن أقـرأ فى الضوء الذى بزغ واهنا اسمه فلم أفلح .

اعتدلت جالسا : عن إذنك . أريد أن أركن دماغى .

رفع رأسه فسحبت الوسادة وطويتها فوق رأسى لأظفر بقليل من النوم . فى تلك اللحظة فقط اكتشفت أنه هو .

البؤبو الملتمع الذى خبا فيه الضوء لبرهة ، وشفتان مزمومتان وكلمة يكررها بتوجع :

ألا تصدقنى ؟ هززته والأجساد من حولى متناثرة على الطوار ، وتحت أشجار الكافور : ألا تعرفنى .

ومضت فى ذهنى السنوات المريرة ، وعدت لأيام الخندق الواحد . بدا مستسلماً لهزات يدى . صرخت فيه : لم أعرفك فى البداية . لكننى الآن عرفتك !

كانت أقدام غليظة تدوس الأسفلت حذرة حتى لاتطأ النائمين . دعك عينيه وهو يتأملنى :لعلى رأيتك من قبل . لكن لا أتذكر أين !

كانت اللحظة قاسية ، فهل ينكرنى عن عمد . قلت له :ضع رأسك على الوسادة يادفعة ! نطق بصعوبة وهو يقاوم النوم : أيام الجيش هى ؟

قلت له أتحسس أيام الزهو واتشمم رائحة البارود : سرية الـم . ط انتفض فجأة وازاح الوسادة : الأومباشى ثروت ؟

تعانقنا ، اهتز جسده وهو يحتضننى ، بينما برد الصباح ينخر العظام وضباب خفيف يضرب وجوهنا . قلت له : معنا شاى فى السيارة .

أمسك بيدى : الأمر لايحتاج لمشقة . تمسك بمكانك .

كان فوق رأسى مباشرة عـمود إنارة مطفأ ، والندى يهبط بغاية الهدوء فوق أجسـادنا . عينان صقريتـان لا أنساهما . قلت ألومه : كـيف حالك يازميتى ؟

كانـت السمـاء مكشوفـة ، والأبدان قد انتـصبت وبدأ النائمـون فى الصحيان . رد بلهجته الطيبة وبتقطيبته الأخميمية : كما ترى !

سألته : أهناك أمل أن نحصل على عقد عمل فى الخارج ؟

اقتـرب من البوابة الحـديدية الضخـمة بصـعوبة ، وأخذ يـرمق لوحة الإعلانات ، بمنتهى اليأس تنهد : إن كان لنا عمر !

هل قـصصت على أولادى تلك اللحظـة الفاصلة التى نبش بأظفـاره بحثا عنى ، وانتزعنى من بين سرداب الموت معرضا نفسه للهلاك ؟

قام ثلاثتنا نطوى غطاء السيارة بعد أن نفضنا التراب ، وأعدنا الوسائد للمقعد الخلفى . ثم اقتربنا من البوابة بمشـقة . اعتصرت بقبضة يدى طرف ياقتى فى عصبية زائدة مقاوما الزحام . هزنى برفق : إهدأ !

بدأت الشمس تصب نارها فـاشتد الزحام ، وارتفـعت الأصوات فى لغط تحـولت الأجـساد إلى كـتلة من البـشـر بألف ألف ذراع ، يلوحـون بالأظرف الصـفراء فى عـصـبية ، أطل رجل ضخم وقـال بنبرة متعالـية : نظموا أنفسكم !

حاولنا جـاهدين أن نشكل طابورا دون جدوى . ضحك الزمـيتى فى مرارة وقال بصعيدية افتقدتها طويلا : يلزمنا الصول رفعت !

قلت أجاريه فى مرح مصطنع أطرد به شبح الحزن : سيقودنا بأورنيك ذنب مشترك .

انتزع من وجوم اللحظة ظل ابتسامة فيما كان الرجل الضخم يحكم إغلاق البوابة بالجنزير . ولقد رأيناه يصعد السلم الرخامى ويغيب لدقائق .

وماهى إلا لحظات حتى أتى عساكر الأمن المركزى فى اللوريات الضخمة . طوقوا الشارع الرئيسى المفضى إلى الميدان ، ولوحوا بخيزراناتهم اللاسعة فى الوجوه المشرئبة . والرجل هبط درجتين وعلا صوته فوق الجميع : نظموا أنفسكم أولا !

أما الأيدى التى كانت تتحرك بالأظرف الصفراء حاملة الشهادات الموثقة وأوراق الخبرة وصحيفة الأحوال الجنائية فقد أرهقت وبدت خرساء .

حين أحكم العسكر سيطرتهم على البوابة هبط الرجل وأحاط نفسه باحترام وهيبة وأشار للغفير أن يفتح . .

فى تلك اللحظة توالت ضربات الخيزران على الأجساد فى إيقاع منتظم ، وتسرب عرق مالح إلى حدقة العين فشعرت بألم هائل وتمنيت أن أهرش بإصبعى الصغير فلم أقدر . تعالت الصرخات .كدت أندفع هاربا من ذلك الجحيم ساخطا على الفكرة كلها . تأملنى فى شرود : تحمل يادفعة . هذه المرة ليس بيدى أن أفعل لك شيئا .

فى العودة من مهمتنا الخطرة جرحت ساقى إثر ارتطامى بوتد خشبى . رحت أعرج . قال لى أن علىّ أن اكتم ألمى مهما كلفنى الأمر ؛ فعودتنا بجهاز اللاسلكى وبمعلومات دقيقة عن المواقع المتقدمة لقواتهم ونظم التسليح وتوزيع عربات الحملة أمرٌ مهم .

كدت أسأله محتجا من أين أتى بتلك القدرة على تحمل العطش والسير لمسافات طويلة فى أرض هشة من الكثبان الرملية ؟ واصلت الاستناد إلى كتفه حتى التقطتنا عربة جيب الصاغ عبد الحى.

نظرت إلى الأسياخ الحديدية التى تتقاطع مع قوائم عرضية للبوابة الصماء . قلت والزحام يطبق على صدرى : لقد هجر العساكر الديبة يازميتى !

اكتفى بالتحديق فى الفضاء ، عيناه ترتعشان بأنين خافت ، فجأة هز رأسه وهو يتلقى خبطة عشوائية على كتفه بقايش غليظ ، بينما إرتطام جسده بالسور يصل إلى مكتوما : عرفت منك ذلك .

صرخت به وأنت نائم يا أومباشى ثروت!

هل كانت دمعة ذرفتها عينى أم خيط من عرق مالح تسلل للجفون ، قلت بأسى :

فى الديبة رأيت نوارس البحر تبكى . لقد اشتاقت لرائحة البارود القديم!

عودة المحارب

دفنوه تحت شجرة الجميز العتيقة . أنا رأيتهم بملابسه رأيتهم يدفنوه . أهالوا التراب على جثته . سوت أيديهم الأرض ، وبعد أن أنتهوا وقفوا يبكون .

وعلى فرع شجرة الزيتون القريبة حط غراب كالح اللون ، صاح : غاق ، غاق فى الخلاء : غاق . . غاق . . غاق .

كانوا خمسة ، وساد سهم صمتهم . وحركة أقدامهم كانت منضبطة . لم يقرأوا شيئا من القرآن . كان المطر ينهمر مدرارا ، والرعد يقصف فيحتوى البيوت فى عباءة فزع لاهث .

حين انصرفوا تركوا الليل ممزقا ومرتعدا . أتت تتلفت حولها فى فزع . كانت ترتدى الجلباب الأسود الشرقاوى ، وتضع فوق شعرها طرحة بللها المطر الساقط .

راحت تنتحب وهى تستند بيدها على الجذع العتيق ثم أخرجت من سلتها الخوصية شاكوشا وراحت تدق مسمارا أمسكته بطرفى أصبعيها بعد أن انغرس لفت خصلة شعر ، وجذبت الرأس فجأة صرخت وكان الخلاء موحشا جرت نافرة فى اتجاه الجسر الترابى . انخلع الحذاء من قدميها ، تركته بعد أن نظرت فى ساعة يدها مرتعبة وفرت حافية .

احتجب القمر خلف سحابة رمادية داكنة ، جاء الولد حاملا سعف النخيل انحنى بجذعه واضعا مابيده فوق الحفرة التى سوت أيديهم ترابها راحت شفتاه تتمتم بادعية يلقيها بنبرة خاشعة ثم أنه مد يده وبين أفرع الشجرة المتدلية انتقى موضعا وضع أنية بها حنطه وكوبا ممتلئا بالشعير حتى

حافته وقطعا من الصلصال المحروق على هيئة الراقد تحت الثرى لايبصر!

حين برز القـمر ، وتبددت السـحب راح يهرول فى الاتجـاه العكسى للجـسر ثم اختـفى بجسـده النحيل فـى حقل الثوم الـقريب وقفـت عربة (جيب) أمام الشجر قفـز من جنب السائق ضابط يرتدى الكاكى كان محرك العربة مازال يدور .

خلع كابه وأشار بيـده فبرز من المقعد الخلفـى أومباشى راح ينفخ فى البروجى نوبة رجوع . . وماكاد ينتـهى حتى اندفعت ارتال السيارات وهبط الجندى فى الساحة .

اصطفوا خلـعوا السناكى وثبتـوا البنادق فى أكتـافهم وأطلقـوا إحدى وعشرين طلقة . ومضوا .

كف المطر ، ماعاد أحد يأتى تقلبت فصول ، رف طير واختفى .

تعـالى أنين وخفت . . مـاعاد أحـد يأتى . غـراب راح يقتـرب من الأشجار حائرا ، ثم فى صراخ ملتاع هوى ميتا .

رويدا رويدا غمر المكان ضوءا أصفر هائلا . . ذرات التراب المعلقة فى الفضاء كان يمكنك أن تراها بكل الوضوح .

تحركت الأرض الموحلة شق جـسده الطين بعوده الفارع انتـصب واقفا نفض بيده ماعلق بثيابه ووجهـه تناول حبات الحنطة ثم أنه اغتسل فى النهر قبل أن يواجه المدينة بعودتـه المفاجئة مرتديا أفروله الكاكى وحامـلا بندقيته مشرعا السونكى فى الوجوه المرتعبة !

المحتويات

صدر للمؤلف

* **قصص وروايات .**

- رجال وشظايا (رواية) - أدب أكتوبر - ١٩٩٠
- خوذة ونورس وحيد (مجموعة قصصية - ٢٠٠١

* **شعر**

- الخيول (شعر عامية) ١٩٨٢
- ندهة من ريحة زمان (شعر عامية) ١٩٩١
- ريحة الحنة (شعر عامية) ١٩٩٨
- نتهجى الوطن فى النور (شعر عامية) ٢٠٠٠
- سجادة الروح (شعر عامية) ٢٠٠٠

* **تبسيط ومراجعات**

الحكيم وحماره (سلسلة عين صقر) ١٩٩٩

* **حوارات صحفية**

- مواجهات (مجموعة حوارات) ٢٠٠٠
- تقاطعات ثقافية (مجموعة حوارات) ٢٠٠١

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٧٣٧٧ / ٢٠٠١



«كيف يحارب الجندى بلا خوذة ؟» مجموعة قصصية تعبر بجلاء عن فكرة الحرب . فهى لا تعنى الضجيج الذى يواكب لحظات الصراع الضارى مع العدو ، بل تمتد إلى اللحظات المضمرة فى ضمير المقاتلين ، وتتجه إلى كشف المسكوت عنه فى حياة هؤلاء الرجال الذين اصطفاهم الموت فى حفرهم البرمالية .

فى لغة شفيفة ، وأحداث كاشفة يعمق الكاتب من فكرة البعد الكامن فى خلفية المشهد عبر سرد يتميز بالرهافة والشاعرية أحيانًا ، لتقدم لك تلك تلك المجموعة شهادة دالة عن آلام وأحلام المحاربين فى معارك أكتوبر ١٩٧٣

إنها بحق لوحات واقعية للحظات المواجهة مع العدو ، والمواجهة مع النفس لتبزغ البطولة بمفهوم شعبى ، وهى أن يحمى المحارب ظهور من يعيشون فى قلب الوطن بعيداً عن خنادق الحرب وشظاياها المميتة !!



